

الفصل الثالث

الحب ومشكلات الزواج

١ - هل الحب إثم ؟

من أبرز أوجه التطور التي نشاهدها في مجتمعنا منذ حوالى ربع قرن خروج الفتاة من الدائرة الضيقة التي كانت تعيش فيها داخل المنزل إلى الحياة الاجتماعية الخارجية . فهي الآن تلتقى بالشباب في مدرجات الجامعة وتشارك معه في الحفلات والرحلات وغيرها من أوجه النشاط الاجتماعي . ومن جهة أخرى اتسعت أمام الفتاة العصرية ميادين جديدة للعمل ولكسب العيش . فهي قد تكون معاونة للرجل وقد تكون مزاحمه له تريد أن تفتح أبواباً جديدة باسم ما اكتسبته من علم وما أبرزته من قدرة على القيام بأعمال كانت وفقاً على الرجال سواء في مجال الأعمال الحرة أو في القضاء والسياسة . ويبدو أن الدافع الأساسي للقيام بهذه الحركة ليس في الواقع ضرورة كسب العيش فقط بل الرغبة الملحة الغامضة في التحرير وطلب الاستقلال وإثبات شخصيتها .

ولا شك في أن مثل هذا التطور الإجبارى الخطير قد

أدى إلى حلّ بعض المشاكل التي كانت تعانيها المرأة ولكنه أثار في الوقت نفسه مشاكل جديدة أو على الأقل زاد من حدة بعض المشاكل التي تنطوي عليها طبيعة المرأة ورسالتها الأصلية في الحياة . فإذا كانت حركة التحرر والاستقلال قد أدت إلى إثبات شخصية المرأة في الواجهة الاجتماعية فكثيراً ما يتم هذا النجاح الاجتماعي على حساب شخصيتها النفسية وتوازنها الوجداني العاطفي .

ليس غرضي البحث في حركة تحرير المرأة والحكم عليها ، بل الكشف عن بعض المشاكل التي تعترض المرأة في حياتها الجديدة وتشخيص هذه المشاكل والإشارة إلى طرق معالجتها وحلها . وفيما يلي عرض وجيز لحالة نفسية من الحالات التي ترد للعيادات السيكولوجية ، حالة تبدو في بادئ الأمر غريبة غير أننا سنحاول فهمها وتعليلها . قال لي السيكولوجي الذي قص عليّ هذه الحالة .

« جاءني مرة طالبة جامعية وهي في شبه ثورة وقالت لي : إن حياتي أصبحت لا تطاق ، إنني أصبحت عاجزة عن متابعة المحاضرات واستذكار الدروس والامتحان على الأبواب وأنا في السنة النهائية فستقبلي مهتد وأنحشى أن يضيع ما كنت آمله من نجاح وتفوق في خوض معترك الحياة العامة التي تنتظرنى . » فحاولت أن أهديء من عصبيتها وسألتها عن سبب

انفعالها وتأثرها : هل اقترفت ذنباً ، هل أساء أحد إليك ؟
 - لم يسيء إلى أحد ولم أسئ إلى أحد بل أعتقد أنني
 ارتكبت ذنباً لا يغتفر ، خاصة وأني طالبة جامعية كما تعلم !
 - وما هو هذا الذنب يا آنسة ؟

- فقالت بعد فترة : تصور أنني بدأت أشعر بشعور
 غريب نحو أحد زملائي ، وأخشى أن يكون هذا الشعور
 هو الحب .

فاحمر وجهها ولا أدري إذا كان سبب هذا الاحمرار هو
 الغيظ أو الخجل أو الحب نفسه وكأنها شعرت باحمرار وجهها
 فحاولت إخفائه بتصنع الترفع وعدم المبالاة وظهرت على
 ملامحها إشارات خفيفة من القسوة .

- وهل الحب ذنب ؟

- هو على الأقل من دلائل الضعف والخذلان ، خاصة
 عند ما يتخذ هذه الصورة الخيالية التي وضعها الشعراء والتي
 أصبحت لا تتفق مع عصرنا الذي يمتاز بالكفاح والمنافسة
 والروح الواقعية .

* * *

تصور لنا هذه الحالة الصراع الذي يقوم في نفس الفتاة
 عند ما يختل التوازن بين مطالب القلب وبعض المطالب الاجتماعية
 وتكون الفتاة عاجزة من التوفيق بينها ، وأعتقد أن أقرب حل

لهذه المشكلة هو أن نحاول الكشف عن دوافع الحب لدى المرأة والوقوف على دلائل الحب عند ما يكون صادقاً صحيحاً .
 وسنقصر الحديث على أهم مظاهر الحب الكامل عند ما يقتحم قلب الفتاة ويغمره من كل جانب دون مقاومة أو انحراف .
 تغنى الشعراء بالحب ووصفوه وصفاً رائعاً جميلاً وحلله الأدباء في قصصهم وحاولوا تحديد وجوهه العديدة . ويبدو أن الكلمة الأخيرة الشافية لم يقلها بعد أحد كأن الصمت في هذا المجال أفصح من الكلام . هل محكوم على الحب أن يظل لغزاً مغلقاً وسيراً غامضاً . وإذا كان الشعراء لم ينجحوا في التعبير عن كنهته وجوهره هل يحق للعلماء أن يقولوا كلمتهم في هذا المجال ، ألا يخشى أن تُزيد كلمتهم الجحافة ما يحيط بالحب من رونق وجاذبية .

الحق أن علماء النفس وخاصة علماء التحليل النفسى قد نجحوا في إمطة اللثام عن بعض أسرار الحب وهم متفقون مع الشعراء والقصصيين في وصف علاماته الصادقة ولكنهم ذهبوا إلى أبعد من غيرهم في تحليل دوافعه وتفسير وجوهه المختلفة المتعددة ، السوية منها والشاذة .

ويمكن تلخيص أهم دلائل الحب الصادق الكامل في النقاط التالية :

أولاً : الشعور الذاتى بالسعادة : ولتفسير هذا الإحساس

بالسعادة يجب أن نذكر ما يقوله التحليل النفسى عن تركيب النفس الإنسانية - فالذات الشاعرة أو الأنا شبيهة بساحة قتال تتصارع فيها القوى الغريزية اللاشعورية والانفعالات المكبوتة مع قوى أخرى هى أيضاً لاشعورية تكون ما يعرف بالأنا الأعلى وهو أشبه ما يكون بالضمير الخلقى البدائى الذى تكون منذ الطفولة الأولى بتأثير التربية من أوامر خلقية والتزامات يفرضها الوالدان على الطفل لكى يصبح اجتماعياً بمقاومة أنانيته ووجهه لنفسه . وكثيراً ما يكون الأنا الأعلى صارماً فى معاملته للذات الشعورية . وإذا كان التوتر بين الأنا الأعلى شديداً نتج عنه الألم والقلق والشعور بالإثم . وبالعكس عند ما ينخفض هذا التوتر تعود الراحة إلى النفس وتشعر بالسعادة .

والحب فى نظر المحللين هو إسقاط الأنا الأعلى على المحبوب كأن الشخص عند ما يحب يبحث عن نفسه فى صورة المحبوب . فى حالة الحب السعيد أى الحب المتبادل يكون المحبوب الذى يمثل الأنا الأعلى راضياً عن الآخر وهذا يفسر لنا حالة السعادة والاطمئنان التى يحياها الشخص .

ولكن هذه السعادة لا تكون دائماً صافية مستقرة بل يتخللها فترات من الشك فى صحة اختيار موضوع الحب كأن هناك فى النفس نزعة إلى التعذيب الذاتى تقاوم الميل إلى السعادة القصوى . وبما أن الشخص الذى يحب يبحث إلى حد ما عن نفسه

أى بما أن المحبوب هو صورة للذات فمن الطبيعي أن يغالى الشخص فى قيمة محبوبه ولذا قيل إن الحب أعمى . ويترتب على هذه المغالاة فى قيمة المحبوب التقليل من قيمة الواقع وعدم الخوف من العالم الخارجى والشعور بالقوة فى مقاومة الصعاب والتغلب عليها إذ أن ما دام الأنا الأعلى راضياً عن هذا الحب وبما أن الأنا الأعلى يمثل فى النفس اللاشعورية سلطة الوالدين فلا بد أن تكون النفس راضية مطمئنة لا تخشى شيئاً :

وإذا كان حب الآخر هو فى نهاية الأمر حباً ذاتياً فمن الطبيعى أن ينحصر الحب فى شخص واحد ويتركز فيه دون غيره وأن يصبح المحب تابعاً كلية للمحجوب محاولاً دائماً أن يتجنب دواعى التوتر والخلاف خوفاً من أن يفقد السعادة والاطمئنان .

وأخيراً لا تكمل صورة الحب إلا بالإشارة إلى ما يعترى المحب من تغيير فى سلوكه الخارجى من جهة ومن مضمون تأملاته وتخيلاته من جهة أخرى . فلا يكون الحب صادقاً إلا إذا اصطبغ السلوك والتفكير بصبغة عاطفية وصاحبته حالات انفعالية خاصة من عطف وحنان تبرز فيها دوافع الحياة العميقة بالعواطف والحركات المعنوية اللطيفة .

وإذا عدنا الآن إلى حالة الفتاة التى ذكرناها فى بدء هذا الحديث وجدنا أن مشكلتها تعود إلى عوامل لاشعورية ترجع إلى الطفولة وإلى تكوين ما سميناه بالأنا الأعلى . فهى تعانى

توتراً عنيفاً بين الجانب الشعوري في نفسها والجانب اللاشعوري فهي تميل إلى تعذيب نفسها وإنكار ما يجب عليها أن تقوم به في سبيل إرضاء حبها لذاتها . وقد أدى هذا التوتر الداخلي إلى الفصل بين العنصرين الأساسيين في الحب ، العنصر الجسمي والعنصر العاطفي الروحي . فهي تعتقد أن الاستسلام للعواطف ضعف وأن الجانب الجسمي بمثابة انحطاط وإهانة لكرامتها .

فالطريق السوي الذي يجب أن يسير فيه الحب هو تحقيق التكامل بين نزعات الإنسان من حيث هو كل متكامل من جسم ونفس ، وكما أن الحب العاطفي البحت حب ناقص ، كذلك الحب المقصور على مجرد الرغبة الجسمية ناقص بدوره .

ومعظم المشاكل التي تعترض سعادة الإنسان في حياته العاطفية وحياته الزوجية ترجع إلى هذا الفصل بين عنصرى الحب وبقدر تحقيق الانسجام بينهما تكون سعادة الزوجين وبالتالي سعادة الأطفال الذين هم بحق أجمل ثمرة للحب الصحيح السعيد .

٢ - الزواج والسعادة :

سنتناول في الصفحات التالية مشكلات الزواج مع الإشارة إلى وسائل التكيف بين الزوجين ومختلف العوامل التي تهدد هذا التكيف .

إن موضوع الزواج متعدد النواحي تلتقى فيه مجموعة كبيرة من العوامل البيولوجية والنفسية والاجتماعية والقضائية والروحية وهو مرتبط ارتباطاً وثيقاً بموضوع الأسرة إذ الأسرة في مجتمعنا المتحضر تقوم على زواج الرجل والمرأة طبقاً لتقاليد ونظم وقوانين يعينها المجتمع . والأسرة تعتبر بحق النواة الاجتماعية الأصلية . وعلى الرغم من أن كثيراً من وظائف الأسرة قد ضعف أو تلاشى مع تطور المدنية فلا تزال هناك وظائف أساسية تؤديها الأسرة إذا أراد المجتمع أن يحتفظ بكيانه وأن يضمن بقاء الثقافة والمدنية والحضارة التي حققها منذ فجر الإنسانية حتى يومنا هذا . ويمكن تلخيص وظائف الأسرة في النقاط الآتية :

أولاً : إعطاء العلاقة الجنسية بين الزوج والزوجة قيمتها القصوى من الوجهة الوجدانية والروحية إذ أن سعادة الإنسان تقتضى بأن يكون الرباط الذي يربط بين الزوجين رباطاً جسماً وروحياً في آن واحد .

ثانياً : تنشئة الأطفال في جوٍّ من المحبة المتزنة والتفاهم الودي .

ثالثاً : إعداد الفرد لكي يصبح عضواً نافعاً في المجتمع يدرك بوضوح ما عليه من واجبات وما له من حقوق ، لا ينشأ فقط على الأخذ والمطالبة بل يحسن العطاء والبذل .

رابعاً : إعداد الطفل بطريقة تدريجية ولا شعورية لكي

يحقق في المستقبل زواجا سعيداً ناجحاً .
وهذه الوظائف ، كما هو واضح ، مرتبطة بعضها ببعض .
فالوظيفة الأولى خاصة بالزوجين وبطبيعة العلاقة التي يجب أن
تقوم بينهما وهي الشرط الأساسي لتحقيق الوظائف الثلاث
الأخرى الخاصة بالأطفال . فالأسرة لا تكمل إلا بهم كما أن
شخصية كل من الزوج والزوجة لا تزدهر وتكتمل إلا بهم .
غير أن عدم إنجاب الأطفال إذا كان غير متعمد ، لا يعنى
حتماً شقاء الزوجين وضرورة قطع أواصر الزوجية بينهما .
أما إذا كان عدم إنجاب الأطفال أمراً متعمداً مقصوداً
مع عدم وجود أى مبرر طبي لذلك ، فعندئذ نكون بصدد حالة
شاذة مبعثها الأنانية الزائدة أو أعراض مرضية نفسية تتطلب العلاج .
ودراسة الزواج من الوجهة السيكولوجية تقتضى البحث فى
الأمر الآتية :

ما هو المقصود بالسعادة الزوجية - هل يمكن
دراسة هذا الموضوع دراسة علمية وما قيمة البحوث التى
عملت فى هذا الميدان - ما هى العوامل التى تضمن السعادة
الزوجية وبالتالي أسباب الشقاء بين الزوجين - وأخيراً هل
فى إمكان عالم النفس أن يساعد الزوجين على إزالة أسباب
الشقاء وإعادة الوفاق والانسجام بينهما . وسنحاول الإجابة
على هذه الأسئلة مع الإشارة بصفة خاصة إلى الدور الهام الذى

تؤديه الزوجة في تدعيم الأسرة وتحقيق سعادتها .
لا شك في أن معنى السعادة ومعنى النجاح من المعانى النسبية . فالسعادة حالة نفسية ذاتية تختلف باختلاف الأشخاص وباختلاف حاجات كل شخص وميوله وأغراضه ومثله العليا ، بل تختلف باختلاف العوامل اللاشعورية التي تعين الميول والاتجاهات والتي قد تحول دون تحقيق السعادة على الرغم من توافر الأسباب الخارجية الظاهرة التي يُعتقد عادة أنها كافية لتحقيق السعادة والرضى . ومعنى النجاح مختلف عن معنى السعادة فهو مرتبط أكثر من السعادة بالعوامل الثقافية والاجتماعية ومن الخطأ أن يُتخذ النجاح كما يبدو للمجتمع معياراً لسعادة الأفراد . فقد يكون النجاح الاجتماعي ستاراً يخفي وراءه التعاسة التي يعانيتها الشخص في حياته الداخلية الخاصة .
ثم إن السعادة ليست حالة مستقرة يمكن الاحتفاظ بها في ركن من أركان النفس بعيداً عن معترك الحياة وعن الجهود التي يتطلبه الكفاح اليومي . بل ما تمتاز به السعادة من جاذبية وفتنة وإغراء يرجع إلى أنها هدف يثير الاهتمام ويدفع إلى العمل والنشاط والإنتاج وبذل الخير والمحبة للآخرين . إذ أن اكتمال السعادة لا يتم إلا بنمو جميع إمكانيات المرء وإزدهارها في مجال الأسرة والمجتمع .
وكما أن السعادة ليست حالة مستقرة فهي ليست من جهة

أخرى بذل النشاط بإسراف ومواصلة العمل إلى حد الإنهاك لجمع المال واكتساب الجاه والمجد . فالطموح الأعمى يُلهي صاحبه عن نفسه ويحول دونه ودون الغذاء العاطفي الذي يحقق الاتزان النفسي والسعادة الحقة .

فالسعادة إذن وإن كانت حالة ذاتية ونسبية ، مرتبطة بالاتزان النفسي وبما أن للاتزان النفسي مظاهر خارجية يمكن مشاهدتها في سلوك الشخص فيرتب على ذلك أنه من الممكن تعيين أهم شروط السعادة بالوقوف على أسباب الاتزان النفسي وعوامله . ومعنى الاتزان قريب من معنى الاعتدال وهو يوحى دائماً بوجود طرفين أو جانبين متقابلين يسعى المرء في التوفيق بينهما . ويتخذ هذان الجانبان أشكالاً عدة تبدو مختلفة في الظاهر وإن كانت متشابهة ومتحدة في جوهرها ، نذكر منها الحقوق والواجبات ، الأخذ والعطاء ، حب الذات وحب الغير ، الإمكانيات والمطالب ، الوسائل والأهداف ، الحاجة إلى الأمان والاطمئنان والميل إلى المجازفة والاستزادة إلخ . . . والتوفيق بين هذه الأزواج من الأطراف لا يتم أبداً بصورة ساكنة مستقرة نهائية بل يتطلب مواصلة العمل وبذل النشاط لإعادة تحقيقه كلما تعرض الاتزان للاختلال بتغير الأحوال . فأحوال المعيشة اليومية متغيرة حتماً والحياة في صميمها مقاومة وكفاح . ويمكن توزيع نشاط الإنسان في ميادين ثلاثة : المهنة ،

الأسرة ، المجتمع الخارجى أو بعبارة أخرى العمل ، الحب ، وشغل أوقات الفراغ . والنجاح فى هذه الميادين الثلاثة كفىل بتحقيق الاتزان والسعادة ، بشرط أن يبذل الشخص المجهود الملائم المؤدى إلى التكيف . وبالنجاح فى هذه الميادين يرضى الإنسان ثلاث حاجات جوهرية الحاجة إلى الأمان والاطمئنان ، الحاجة إلى العطف والحب ، الحاجة إلى تقدير الآخرين والسمعة الطيبة . ويبدو أن الأسرة نظراً لكونها نواة الحياة الاجتماعية وصورة مصغرة لها تتيح للشخص فرصة إرضاء هذه الحاجات الأساسية وخاصة الحاجة إلى العطف والحب . فسعادة الأسرة تقتضى من جميع أفرادها المساهمة فى أعمال المنزل والاهتمام بشئونه المادية ثم خلق جو من التفاهم والمحبة والانسجام وأخيراً تنظيم أوقات الفراغ وإتاحة أسباب الترفيه عن النفس . ولذلك يُعد تحقيق السعادة فى حياة الأسرة من أشق الأهداف وخاصة تحقيق التكيف بين الزوج والزوجة وبينهما والأطفال .

فالتكيف الذى يجب أن يحققه الإنسان فى مجال عمله بينه وبين رؤسائه أو أقرانه يتطلب أحياناً كثيراً من التضحية والجهد غير أنه أخف وطأة من التكيف المطلوب من الزوجين إذ أن الصلة التى تربط الإنسان بعمله تكون متقطعة وخارجية إلى حد ما فى حين أن الصلة التى تربط بين الزوجين مستمرة داخلية يجب أن تصل إلى حدّ الاتحاد والتوحيد ، وهذا الاتحاد

يشمل جميع النواحي الجسمية والنفسية . فعلى الزوجين التوفيق بين أمزجة وعادات وأخلاق ومعتقدات وميول خاصة بكل واحد منهما . وهذا أمر شاق عسير لا يمكن أن يتم في وقت وجيز بل يتطلب مواصلة المجهود سنوات طوال .

* * *

وعند ما نحلل معنى السعادة^(١) نجد أن الطابع الذي يغلب عليها هو أنها حالة نسبية غير ثابتة تتوقف خاصة على عوامل ذاتية غالباً ما تكون مجهولة من الشخص .

وكما أن هذه العوامل الذاتية مرتبطة بالظروف الخارجية وتتفاعل معها قام بعض علماء النفس بدراسة السعادة الزوجية دراسة موضوعية إحصائية بطرح بعض الأسئلة على مجموعات كبيرة من المتزوجين . وقد وُجد أن نسب حالات الزواج السعيد تختلف باختلاف الطبقات فهي أعلى بوجه عام في الأوساط المتعلمة وخاصة الأوساط الجامعية . كما أنه لوحظ أن نسبة حالات السعادة في النساء المتزوجات تقل عادة عن نسبتها في الرجال المتزوجين ، وهذه النتيجة يمكن تفسيرها إلى حد كبير . فقد سبق أن تحدثنا في الفصل الثاني عن تطلع المرأة إلى المطلق والكمال وبالتالي عن الصعوبات الجمة التي تعترض سبيلها

(١) انظر « مشكلة السعادة » في كتاب « شفاء النفس » للمؤلف

إلى السعادة . ونعلم من جهة أخرى أن عقل المرأة يميل إلى التأليف وإلى النظرة الكلية أكثر من ميله إلى التحليل والتفكير المنطقي الاستدلالي . فهي تُحس أكثر من الرجل أن الزواج فعل اجتماعي يقتضى تكامل النواحي الجسمية والعاطفية والروحية داخل محيط الأسرة . فهي لا تفهم أن يفصل بين هذه النواحي وإن قبلت الفصل مرغمة طائعة فسيكون هذا القبول على حساب سعادتها الداخلية وتوازنها النفسى . أما الرجل فهو أميل إلى التقسيم والتشتت ، يُوزع نشاطه وبالتالي يوزع عوامل إرضائه بين الأسرة وبين عمله الخارجى ومشاغله مهنته وفى إمكانه أكثر من المرأة أن يلجأ إلى عمليات التعويض .

وهناك نتيجة أخرى . أسفرت عنها البحوث التى أشرنا إليها . وهى أن حالات السعادة الزوجية تزداد مع طول مدة الزواج . فإذا تناولت الدراسة حالات الزواج التى تتراوح مدتها بين سنة وست عشرة سنة فتكون نسبة حالات السعادة ٧٥ ٪ فى حين أن هذه النسبة تهبط إلى ٦٨ ٪ فى حالات الزواج التى لا تزيد المدة فيها عن ست سنوات .

ومن اليسير تعليل هذه النتيجة : فالسنوات الأولى فى الحياة الزوجية تتطلب مجهودات شاقة لتحقيق التكيف بين الزوجين الجديدين وذلك لعدة أسباب :

أولا : الأسباب التى ترجع إلى المرحلة السابقة للزواج

والممهدة له . وتختلف هذه المرحلة في الشرق باختلاف الأوساط وبالنسبة إلى كل من الرجل والمرأة . فقد يُفرض الزواج على البنت فرضاً دون أخذ رأيها في اختيار الزواج . وفي هذه الحالة كثيراً ما تشعر البنت بأنها ضحية أو فريسة فتدخل الحياة الزوجية وهي حذرة متحفظة تلجأ في بادئ الأمر إلى أساليب الدفاع والمقاومة أو تحتوى في موقف من الاستسلام والخضوع السلبي بدون تعاون ولا مشاركة . كما أن الرجل في هذه الحالة يدخل الحياة الزوجية وعقليته عقلية السيد المسيطر أو المالك الأناني الذي أضاف إلى مُتعه متعة جديدة ووسيلة جديدة لإرضاء سيطرته وسلطته أو وسيلة جديدة للتعويض عما يعانیه من نقص وتقصير في مهنته أو في مجال نشاطه الاجتماعي . ولا شك في أن مثل هذا الجو لا يصلح مطلقاً لتهيئة الزواج السعيد إذ أن الزواج فعلٌ اجتماعي متكامل النواحي يقتضى التبادل ، الأخذ والعطاء ، والتأثير المتبادل الحكيم المؤدى إلى الانسجام .

أما في حالة إمكان التعارف بين الشاب والشابة سواء قبل الخطوبة أو في أثناءها فإنه يصبح من الأيسر التمهيد لتحقيق الانسجام بينهما بعد الزواج . غير أنه في هذه الحالة أيضاً تنشأ بعض العقبات التي سيكون من شأنها تعكير الجو فيما بعد . وأول هذه العقبات التصنع الذي يلجأ إليه كل من الخطيبين

للظهور في أجمل صورة خلقية لا لتضليل الآخر دائماً بل للاحتفاظ به وتنمية الجاذبية ، خاصة إذا كان دافع الزواج المصلحة المادية أو الاجتماعية أكثر منه دافع الحب والتقدير المتبادل . أما العقبة الثانية فقد تنشأ من طبيعة الحب نفسه . فقد تبحث الحب لا عن قرين أو رفيق بل عن بديل لشخص آخر وكثيراً ما يكون الأب أو الأم وذلك في حالة تعلق البنت بأبيها تعلقاً جنسياً لا شعورياً أو تعلق الشاب بأمه . أو قد يتخذ الحب شكلاً شعرياً خيالياً مسرفاً في الشعر والخيال وهو ما يعرف بالحب الرومنتيكى الخالص . نعم إن عنصر الشعر والخيال من أهم مقومات الحب لأن العاطفة من أهم دعائم الشخصية المتكاملة المتزنة . ولكن كما أن الشخصية تفقد توازنها إذا طغت العاطفة وطمغ الخيال على العقل والفكر فكذلك يفقد الحب قدرته على الخلق والابتكار ويصبح عقبة بدلا من أن يظل قوة فعالة إذا طغى الخيال على الواقع وإذا تاق العاشقان إلى مثل أعلى أسمى من أن يحققه الإنسان في مجتمع تزداد مشاكله يوماً بعد يوم . فالحب الشعري ينمو في الغفلة والأحلام وكثيراً ما يكون مآله الخيبة واليأس . أما الحب الذي يريد أن يكون رباطاً وثيقاً بين اثنين ، جسماً وقلباً وروحاً ، وأن يكون درعاً قوية لوقاية الزوجين من أحداث الدهر فيجب عليه أن يكون يقظاً من حين إلى آخر وأن يقوم على دعامة العاطفة من جهة ودعامة

العقل المستنير من جهة أخرى، أى على التوفيق بين الخيال والواقع .
وأخيراً سواء أتيحت فرصة التعارف أو لا فإن المرحلة السابقة
لعقد الزواج كثيراً ما تكون منشأ متاعب للخطيبين نظراً لما يدور
حول مشروع الزواج من مناقشات بين الأهل فيما يختص
بالمسائل المالية والمادية الأخرى من سكن وإقامة وكيفية فرش
المنزل إلى آخره من هذه الأمور التي لا بد من تنظيمها . هذا
فضلا عن المتاعب التي قد تنشأ من غير الإخوة والأخوات
بحيث يصل الخطيبان إلى عتبة الزواج وهما في حالة توتر عصبي
أو إنهاك مما يهدد تحقيق السعادة الزوجية منذ مطلعها ، خاصة إذا
أضفنا متاعب شهر العسل حيث يحدث الصراع بين الخيال والواقع .
وقبل أن نعرض لمشاكل التكيف في بدء الزواج نشير
إلى نتيجة أخرى من نتائج الأبحاث التي تناولت نسبة حالات
السعادة والشقاء في الزواج . ففي أحد البحوث كانت نسبة السعادة
الزوجية ٤٥ ٪ لدى الزوجات و ٥١ ٪ لدى الأزواج . فطرح
على أفراد المجموعة السؤال الآتي : « إذا كان في إمكانك أن
تضغط على زر فتصبح بأعجوبة أنك لم تتزوج قط فهل
تضغط على هذا الزر ؟ فكانت النتيجة ٩٤ ٪ لا و ٦ ٪ نعم »
ومغزى هذه التجربة أن الشخص يعجز عن تقدير سعادته
أو شقائه حق التقدير . وأنه ما دام يمتلك الشيء فهو يغفل
عن بعض مزاياه ولا تتضح هذه المزايا إلا إذا هدّد هذا الشيء

بالضياع والفناء . ثم إن السعادة ليست حالة مستقرة ثابتة وأنها تتحقق في السعي وراءها أكثر من امتلاكها أو في الاعتقاد بأننا حصلنا عليها .

الواقع أن حياة الإنسان لا تسير على وتيرة واحدة من السعادة أو الشقاء . بل هي مزيج من الاثنين ومع مرّ السنوات يتعود المرء الحياة في جوّ يلتقي فيه النقيضان من فرح وحزن بحيث يصبح الألم أحياناً عنصراً من عناصر تحقيق السعادة . فيصبح المثل الأعلى أكثر اعتدالاً من ذي قبل وشروط السعادة والهناء أو على الأقل شروط الرضى أيسر تحقيقاً .

٣ - عند مستهل الحياة الزوجية :

قد يؤلم القارئ أن يعرف أن المشكلات التي تعترض الزوجين الحديشين تبدأ منذ اللحظات الأولى ، في هذه الفترة التي تعرف بشهر العسل . فلنتبع الزوجين منذ حفلة الزفاف لتحليل نفسيتهما ووصف موقف كل منهما من الآخر . تم عقد الزواج بما يحيط به من ضمانات وتأييدات اجتماعية . اشترك الأهل والأصدقاء في الفرحة وقدموا التهاني الودية والتمنيات الطيبة بالسعادة والرفاهية وأخذوا ينصرفون الواحد بعد الآخر . . . انتهى الحفل معلناً بانتهاء عهد وبدء عهد جديد . وطلباً للراحة والاستجمام بعد متاعب الاستعداد للزواج يقوم العروسان عادة برحلة قصيرة

لتمضية شهر العسل في بقعة هادئة . ولنفرض أن كلا من الزوجين مستعد لبذل أقصى مجهوده من لطف وحب وتسامح لكي يكون هذا الشهر جدير بتسميته ، أن يكون فترة هناء صاف وسعادة حلوة . غير أن الأمر ليس في هذه الدرجة من اليسر والسهولة كما يتصوره الشعراء وكتاب القصص الغرامية . فهناك مشكلات عدة تعترض الزوجين في بدء حياتهما الجديدة : مشكلات خاصة بتكيف كل واحد للآخر والتوافق معه من الجهة الجنسية والمزاجية والأخلاقية .

هل شهر العسل هو امتداد لفترة الأحلام التي سبقت الزواج ، أم مرحلة استعداد للحياة الجديدة وما تتطلبه من واجبات واقعية ؟ أعتقد أن كلما كان الانتقال من عالم الأحلام إلى عالم الواقع سريعاً كان التكيف المطلوب أسهل تحقيقاً . ومن أهم عوامل نجاح هذا التكيف أو فشله ، طبيعة الدور الذي يؤديه كل من الزوجين نحو الآخر . الواقع أن الشخص يدخل الحياة الزوجية في بادئ الأمر وعلى وجهه قناع مستعار ثم يسقط هذا القناع تحت ضغط الظروف وضرورة مواجهة مواقف جديدة وخلق صور جديدة من العلاقات بين شخصين ولا يلبث الشخص طويلاً حتى يسترد طبيعه الأصلي وينخضع للاتجاهات والعادات التي اكتسبها من قبل . وكثيراً ما يحدث تعارض بين الدور الجديد الذي يجب على كل من الزوجين

أن يتعلمه لكي يؤديه على أحسن وجه وبين الأدوار التي اعتاد أن يقوم بها قبل الزواج . وتبعاً لدرجة النضج العاطفي والاجتماعي التي وصل إليها الشخص تكون درجة السهولة في تعلم الدور الجديد . يعتقد بعض الشبان أن العامل الأساسي للسعادة الزوجية التشابه التام بين الزوجين من حيث الأذواق والأفكار والاتجاهات العاطفية . فكل واحد من العروسين يريد أن يجد في الآخر صورة صادقة لنفسه وأن الاتحاد بين نفسين يجب أن يقوم على تجاوب تام بينهما . إن طلب مثل هذا التجاوب التام ينطوي على خداع خطير ولا بد أن يؤدي إلى الحيبة . فالاتحاد في الغرض لايعنى بالضرورة الاتحاد التام في الآراء والعواطف والاستجابات الحسية والانفعالية . نعم إن المثل الأعلى للزوجين أن يصبحا شخصاً واحداً وأن يتحدوا اتحاداً كلياً إذا أمكن . غير أن الوحدة التي تربط بين الزوجية يجب أن تكون وحدة حية منظمة تسمح للعناصر التي تتكون منها بأن تنمو وتزدهر في جو من التبادل الحر والتعاون المثمر .

إن الإلحاح الذي يبديه أحد الزوجين في أن يكون الآخر شبيهاً به كل المشابهة لا يرجع إلى قوة الحب وكماله بل إلى ضعفه ونقصه . فهو دليل على عدم نضج الحب ، كأن الشخص عاجز عن أن يحب شخصاً آخر سوى نفسه ، والإسراف في حب الشخص لنفسه صورة من صبور الحب كما يشعر به الطفل .

ومثل هذا الموقف يؤدي حتماً إلى عرقلة التكيف الجنسي في بدء الحياة الزوجية إذ يكون الدور الذي يؤديه الزوج أو الزوجة دور الطفل المدلل .

ثم هناك عامل آخر ، غير الحب الذاتي المسرف ، يدفع الشخص إلى البحث عن صورة صادقة لنفسه وهذا العامل هو الخوف . وقد برع أصحاب التحليل النفسي في وصف أثر الخوف في العلاقات الزوجية . فمن الوسائل التي يلجأ إليها المرء لمقاومة الخوف التشبه بالشيء المخيف . ألا ترى الطفل الذي يخاف من الغول أو من الكلب يتقمص شخصية الغول أو الكلب ويسلك سلوكهما محدثاً في نفسه في آن واحد الخوف والأمان . ولننظر كيف أن هذا الموقف المزدوج من خوف وعدوان يلعب دوره في العلاقات الأولى بين الزوجين وكيف أن التكيف الجنسي والعاطفي يكون عسيراً لدى الزوج الذي يبحث في الآخر عن صورة صادقة لنفسه .

لا شك في أن الحب عند بدء العلاقات الزوجية يتخذ شكلاً مزدوجاً متناقضاً ، ينطوي على العدوان والهجوم من جهة وعلى الدفاع والاستسلام بدرجات متفاوتة من الرضى من جهة أخرى . ويرجع هذا الازدواج المتناقض إلى الاختلاف القائم بين وظيفة كل من الزوجين . فالحب الذي سيؤدي في الحالات السوية إلى أنبل صورة من الاتحاد بين نفسين يبدأ في شكل

صراع ينطوي حتماً على عنصر العدوان .

ومن المعلوم أن العدوان كثيراً ما يصحب الخوف لدفع مصدر الخوف أو تجنبه . وكذلك كثيراً ما يشعر المعتدى بالخوف لأنه يخشى من المعتدى عليه أن يرد على هذا العدوان بعدوان آخر . وعندما يبحث أحد الزوجين عن شخص آخر شبيه به كل المشابهة أو يعتقد أنه كذلك فإنه لا يسلك هذا السلوك إلا لتهدئة خوفه من عدوان الآخر .

إنه من السهل أن نجد تأييداً لهذا الوصف في سلوك الحيوانات . طبعاً إننا لا نذهب إلى القول بأن سلوك الإنسان شبيه تمام المشابهة بسلوك الحيوانات . فلا يمكننا أن نجهل تطور الحب الإنساني في أشكاله ومظاهره تحت تأثير العوامل الروحية والعقلية والعاطفية وأثر الحضارة والتربية والأخلاق . غير أنه من الخطأ أيضاً أن تتجاهل الجزء المشترك بيننا وبين الحيوانات . فإن جهانا للجانب البهيمي في الإنسان إما أن يعرضنا لانفجار هذا الجانب دون الاستعداد لمواجهة بحزم وحكمة أو يجعلنا نحرم أنفسنا مما قد تمدُّه بنا هذه القوى الحيوانية من حيوية وطاقة نستخدمها في تحقيق الأغراض الروحية والاجتماعية الراقية . فمن الواجب إذن على الزوجين الحديثين أن ينظر كل واحد منهما إلى الآخر على أنه يواجه كائناً حياً وشخصاً واقعياً لا مخلوقاً خيالياً يتصوره حسب رغباته أو مخاوفه . فلا ينظر إليه من

وجهة جنسية بحتة كما لا ينظر إليه من وجهة مثالية وروحية بحتة فيجرده من حساسيته ومن ميوله الجنسية . وليست هذه النظرة الروحية البحتة دليلاً على الاحترام والتقدير بل مبعثها هو الخوف ، بل أحياناً الكبت المرضى .

ذكرنا فيما سبق أحد العوامل التي تجعل تحقيق التكيف في بدء الحياة الزوجية أمراً عسيراً . وأرجعنا هذا العامل إلى عدم نضج الحب ووقوفه عند صورة من صور الطفولية . وسنتناول في الفقرة التالية عوامل أخرى تتعلق بمختلف الأدوار التي قد يقوم بها كل من الزوجين وبعض هذه الأدوار التي يرجع عهدا إلى سنى الطفولة والمراهقة تتعارض مع طبيعة الحياة الزوجية وواجباتها الجوهرية .

٤ - آثار الماضي :

يركز علم النفس الحديث اهتمامه في دراسة السلوك ودراسة الاستجابات التي تصدر عن الشخص في مختلف المواقف الاجتماعية . وهذه الاستجابات تتعين أشكالها وأساليبها تبعاً لما اكتسبه المرء من عادات وما تعلمه من اتجاهات وتبعاً لنظرتة إلى الأشخاص الآخرين الذين يتعامل معهم . فاختلاف المواقف التي تواجهه يستلزم منه أن يغير أحياناً من أسلوبه في الاستجابة والمعاملة ويعتبر مدى قدرته على التغير مقياساً

للتكيف الناجح . غير أن هذه القدرة محدودة ، تحدها الأنماط السلوكية التي اكتسبها الشخص في سنى الطفولة والمراهقة .

وعند ما يتزوج الشخص فإنه يحمل معه هذه الأنماط السلوكية القديمة وكثيراً ما يكون غافلاً عن وجودها فيعتقد أن سلوكه يصدر عن تفكير وروية في حين أن هناك عوامل لا شعورية تؤثر تأثيراً كبيراً في تعيين السلوك وتوجيهه وما يكون التفكير إلا وسيلة للتبرير أو لإخفاء الدافع الحقيقي .

والإنسان طول حياته يؤدي أدواراً مختلفة وتظهر هذه الأدوار وتكتسب منذ الطفولة . فأحياناً يلعب المرء دور المسيطر المتعسف العنيد الذي يريد فرض رأيه وتنفيذه فوراً دون مناقشة ولا ملاحظة . وأحياناً يقوم بدور الشخص الخاضع المستسلم الخائف الذي ينحشى بذل المجهود ولا يبغى إلا الراحة البال والاطمئنان . وأحياناً أخرى يؤدي دور المتملق الذي يلجأ إلى الخداع والمواربة للوصول إلى غايته . وهذه الأدوار وغيرها تتفاعل بعضها مع بعض بحيث يصعب تمييزها بوضوح وتكون في نهاية الأمر اتجاهات لا شعورية تتبلور فيما يسمى بأسلوب الحياة .

والمظاهر السلوكية المختلفة التي تحدث بين الزوجين في حياتهما اليومية ليست في معظم الأحيان سوى تعبيرات رمزية للأساليب الاستجابية التي تكونت في الطفولة والمراهقة ، كما أن المواقف الجديدة التي يقفها كل زوج من الآخر تكاد

تكون صورة صادقة للمواقف التي اشترك فيها الشخص في أسرته عند ما كان طفلاً ، مواقفه مع والديه ومع إخوته وأخواته . وتوضيحاً لذلك نذكر الأمثلة الآتية :

فقد تقوم الزوجة في نظر زوجها بالأدوار الآتية : دور الأم التي يعتمد عليها الطفل كل الاعتماد وعندئذ يكون سلوك الزوج نحو زوجته شبيهاً بسلوك الطفل للذي يأوى إلى صدر أمه طالباً حمايتها ومتعطشاً إلى عطفها وحنانها . ثم قد تنقلب الزوجة في نظر الزوج إلى هذه الأنثى التي كان يكرهها الزوج عند ما كان طفلاً أو تقوم بدور الأخ الذي كان يحبه . ولكن ما يحدث غالباً هو سيطرة صورة الأم في لاشعور الزوج فيقوم التعارض بين الدور القديم الذي كان يؤديه عندما كان طفلاً والدور الجديد الذي يجب عليه أن يتعلمه من حيث هو زوج يتعامل لا مع أم له بل مع زوجة تنتظر منه أن يكون رجلاً بالغاً قوياً واثقاً من نفسه لا طفلاً مدللاً خائفاً .

وما يقال عن الزوج يقال أيضاً عن الزوجة فقد تنظر إلى زوجها نظرتها القديمة إلى الأب الذي كانت تخشاه أو تحترمه احتراماً أعشى أو الذي كان يرضى كل نزواتها ويغض النظر عن أخطائها ونقائصها . فهي تبحث في زوجها عن صورة الأب وتستجيب له بالأسلوب نفسه الذي كانت تصطنعه عند ما كانت طفلة .

غير أنه يجب أن نقول إن استعادة هذه الأساليب القديمة في الحياة الزوجية تحدث بدرجات متفاوتة تبعاً لدرجة النضج الانفعالي الذي يكون الشخص قد وصل إليها . فإن تحقيق النضج الانفعالي ونمو الحياة العاطفية نمواً سليماً دون كبت مرضى ودون تثبيت في مراحل النمو الأولى يحرر العقل والفكر من القيود اللاشعورية ويخفف وطأة الأساليب الدفاعية والاستجابات العدوانية التي تهدد العلاقات الزوجية بالتوتر والفشل .

ومن الاتجاهات المكتسبة في الطفولة والتي تؤثر فيما بعد تأثيراً بليغاً في موقف كل زوج من الآخر الاتجاه الخاص بوظيفة الجنس وقيمه . إن القاعدة الأساسية في التربية الجنسية هي أن يربي الصبي بحيث يتجه نحو الرجولة الجسمية والحلقية دون احتقار الجنس الآخر ودون أن يلحق أن جنسه هو الأفضل بل أن الجنسين مكملان الواحد للآخر .

وكذلك يجب أن تربي البنت بحيث تتجه نحو الأنوثة الجسمية والحلقية دون الخوف من الجنس الآخر ودون تلقيها أو الإيحاء إليها بأنها ناقصة بل أن كل جنس لا يكمل إلا بالآخر ولتتخذ حالة البنت التي توجه في تنشئتها الجنسية توجيهاً شاذاً لتحليل هذه الحالة ومعرفة العواقب السيئة التي ستهدد فيما بعد السعادة الزوجية .

إن المقارنة التي تقوم بها البنت بينها وبين أخيها قد توحى

إليها أنها دونه من حيث التركيب الجسمي وقد تثبت معاملة
الوالدين هذا الاعتقاد في ذهن البنت . ويصحب هذا الاعتقاد
شعور بالألم والحيرة لا يلبث أن يكبت فيما بعد . ثم تأتي مرحلة
الطفولة المتأخرة التي تسبق مرحلة المراهقة وفي هذه المرحلة يتجه
اهتمام البنت نحو العالم الخارجي والنشاط الاجتماعي والتحصيل
المدرسي . وعند بدء المراهقة تأخذ العواطف الجنسية الغامضة
ثور من جديد فتشعر البنت بالجاذبية الطبيعية نحو أقرانها
من الجنس الآخر . وقد يحدث في هذه المرحلة أن تصطدم
العواطف الناشئة بالتقاليد الاجتماعية السائدة ويعجز الوالدان
أو المربون عن فهم دلالة هذا التطور الجديد في النمو العاطفي .
فبدلاً من تهذيبه وتوجيهه بلين وحكمة يحدث ساوك الوالدين
التعسفي شعوراً بالإثم والحطية في نفسية البنت فترتد العواطف
إلى أعماق النفس ثم تبحث عن وسيلة للإرضاء لا تحرمها
التقاليد الاجتماعية فتتعلق البنت بزميلة لها أكبر منها سناً أو
بمدرستها التي قد تكون مدفوعة بشيء من الإسراف إلى بذل
الحب والحنان بصورة تكاد تكون شاذة . وعندئذ يتكون في
البنت اتجاه جديد هو التعلق الغرامي بشخص من نفس الجنس
والنظر إلى الجنس الآخر نظرة خوف أو بغض أو اشمئزاز .
وكثيراً ما يحدث أن تستنكر الفتاة الناشئة أنوثتها أو تنجس منها
ويحدث كل ذلك في هامش الشعور ثم يتغلغل في أعماق النفس

اللاشعورية ويتكامل مع الاتجاهات الشاذة التي نشأت في الطفولة. ثم تجتاز الفتاة مرحلة المراهقة بدرجات متفاوتة من النجاح أو الفشل في تحقيق التكيف العاطفي وتقبل على الزواج دون مقاومة صريحة ولكن بشيء من الفتور ، جاهلة الدوافع اللاشعورية الشاذة التي قويت في أثناء المراهقة وعاجزة عن أن تطهر نفسها من هذه الشوائب ومن موقفها السلبي نحو الجنس الآخر نتيجة لاستنكار أنوثتها . وعند ما ستواجه الزوجة بواجباتها الجديدة ستجد صعوبة كبيرة في تحقيق التكيف المطاوب منها مما يؤدي إلى تعكير صفو الحياة الزوجية . وهنا نلمس ضرورة تثقيف الشباب من الجنسين بالثقافة السيكولوجية التي تنير لهم خبايا النفس الإنسانية وترشدهم إلى وسائل التغلب على الاتجاهات المنحرفة وتحقيق التوافق في بدء الحياة الزوجية .

٥ - الغيرة :

أشرنا في الفقرات السابقة إلى بعض العوامل التي تعكر صفو الحياة الزوجية وتهدد السعادة العائلية ، كالتفاوت الكبير بين الزوجين من حيث المستوى الثقافي أو الاقتصادي والاختلافات البيئية في الآراء والمعتقدات والعادات ، ثم عدم التكيف العاطفي والجنسي ومن أسباب عدم التكيف لدى المرأة استنكار أنوثتها أو الخوف اللاشعوري من الجنس الآخر

والإحساس الخفي بأن العلاقة الجنسية تنطوي على الاعتداء والأذى .
 والتحليل النفسى ، كما نعلم ، يوضح لنا أسباب هذه
 المواقف الشاذة مرجعاً إياها إلى بعض خبرات الطفولة وعدم
 تصفية بعض العقد النفسية اللاشعورية وخاصة عقدة أوديب .

ونود الآن أن نفصل القول فى سبب هام من أسباب
 شفاء الزوجين ، هو الشعور بالغيرة ، هذا الانفعال الغريب
 الذى يلعب دوراً هاماً فى حياة الإنسان منذ طفولته ويطلع
 بطابعه كثيراً من العواطف الاجتماعية . ويجب ألا ننسى شقيقه
 الأقرب « الحسد » . فالغيرة والحسد توأمان يسيران جنباً إلى
 جنب فى ظل توأمين آخرين هما الحب والبغض . وهذه
 الانفعالات الأربعة هى بمثابة الاتجاهات التى تعين أركان أو
 محاور المجال الوجدانى وما يقوم عليه من دوافع وحوافز وميول .
 وتسلك الغيرة فى نشأتها ونموها وظهورها مسالك شتى متنوعة .
 فقد تتكون فى الظلام وتنمو ببطء ولا تكاد تظهر فى مجال
 الشعور حتى تجد صاحبها فى حالة خور وإعياء عاجزاً عن
 إبداء أى مقاومة فتعمل الغيرة عملها الخبيث الدفين فى هدم
 الأمل وتحطيم الصحة النفسية والجسمية فى آن واحد .
 وأحياناً أخرى تتفجر الغيرة كالصاعقة فتز بنيران الحياة
 الزوجية هزاً عنيفاً تاركة وراءها الخراب والدمار .

ليس من السهل تحليل الغيرة ووصف ما يعانىه الغيران

من حالات نفسية نظراً لتضارب هذه الحالات وتعلقها .
 فقد نجاء الشخص الذي يسلك سلوك الغيران يؤكد أنه لا يعرف
 الغيرة وأن الغيرة ليست من أخلاقه . كما يحدث أن الشخص
 الذي يحق له أن يغار على زوجه يجهل تماماً الظروف التي من
 شأنها أن تبعث الغيرة كأنه لا يريد أن يرى أو أن يسمع وذلك
 تحت تأثير دوافع لاشعورية . ولكن إذا حللنا الغيرة كما تبدو
 في شعور الشخص فيمكننا تعريفها وتفسيرها بكل سهولة :
 فهي إحساس مزعج مؤلم ناشئ عن كره الغيران مشاركة
 شخص آخر في حقه بالشخص المحبوب .

فالغيرة عادةً تنشأ في موقف ثلاثي يضم الحبيين والمنافس
 وتنطوي على عدوان موجه نحو المنافس وعلى الخوف من فقدان
 موضوع المنافسة . في مثل هذه الحالة يرجع منشأ الغيرة إلى
 ما يشعر به الغيران بما جرح كرامته وبما يهدد حقه في التملك
 المطلق للمحبوب .

وقد تنشأ الغيرة دون وجود شخص ثالث منافس فتتحصر
 في موقف ثنائي يضم الحبيين فقط وتصبح الغيرة مجرد تعلق
 غرامي مطلق لا يعرف الغضب ولا المنافسة بل يثير باستمرار
 الخوف من فقدان المحبوب دون وجود أي أمر جدير بتبرير
 هذا الخوف . فيغار الغيران من كل شيء كأن يغار من النسيم
 الذي يداعب شعر حبيبته .

ويمكن إرجاع جميع حالات الغيرة إلى التفاوت بين الرغبة والواقع ، بين النزعة إلى التملك المطلق وما يهدد هذه النزعة . بين ما يمكن أن نسميه بالشراسة الوجدانية والقدرة على إشباع هذه الشراسة .

ويؤكد لنا التحليل النفسى أن الغيرة التى يثيرها تدخل المنافس لا تحدث فى نفس الغيران هذه الألوان من الغداى المضنى إلا لأنها تحرك عقدة قديمة ترجع إلى الطفولة هى عقدة أوديب التى تجعل الصبى يتعلق جنسياً بأمه وينظر إلى أبيه نظرة الحصم إلى منافسه . وبقاء هذه العقدة يرجع إلى أن الحب الذى كان يشعر به الطفل ولا يزال يشعر به الشخص فى كبره هو من نوع الحب التملكى الأناى الذى لم يتطور إلى الحب القائم على إنكار الذات وعلى هبة الذات بدون قيد ولا شرط . ونستنتج من ذلك أن الغيرة ليست حتماً ودائماً من مستلزمات الحب .

فالحب الذى يوحد بين قلبين ويجعل منهما قلباً واحداً يتنافى مع الغيرة . وبقدر ما يكون الحب حباً تملكياً تكون الغيرة أشد درجةً وأكثر إيلاماً وتعذيباً .

ولا يتحتم لإثارة الغيرة أن يكون الموقف ثلاثياً فعلاً وأن يوجد المنافس فى الواقع . فكثيراً ما تكون الغيرة غير مدعمة بأمر خارجية بل يكون مبعثها الوهم والتخيل المرضى .

وقد تكون الغيرة ضرباً مما يسميه علماء النفس بالإسقاط أى إلصاق صفة ذاتية بشخص آخر واتهامه بما يعتلج في النفس من رغبات لاشعورية آثمة كوسيلة من وسائل التبرير والدفاع عن النفس . فالغيران يسقط على زوجه رغبتة اللاشعورية في الفرار من قيود الزوجية أو خيانة العهد الذي قطعه على نفسه . وهذه الرغبة عندما تدخل مجال الشعور تنقلب إلى عكسها : الزوجة هي التي ترغب في الخيانة وتسعى إليها . ويصبح التأويل في ذهن الزوج تأويلاً مرضياً وليس في إمكان أقوى الأدلة على براءة المرأة تغيير رأى الزوج الغيران ، لأنه يجد في محاربة زوجته ما يخفف الألم الذي تحدثه في نفسه رغباته المكبوتة .

وهناك نوع آخر من الغيرة مصبوغ بصبغة مرضية واضحة ولا يمكن فهمه إلا في ضوء العلاج بالتحليل النفسى . فمن الحالات الشاذة تعلق الشخص بشخص من نفس الجنس . وقد يتزوج مثل هذا الشخص بعد أن يكون انحرافه قد كبت إلى حد كبير . غير أن المكبوت لا يلبث أن يظهر في صورة مقنعة . فهذا الزوج المنحرف يعانى اتجاهات لاشعورية نحو الأنوثة أى نحو الاتصاف بصفات الأنثى . فهو في آن واحد يتقمص شخصية زوجته ويتمنى أن يكون له منافس لكى يرضى نزعاته نحو الأنوثة عن هذا الطريق الالتفانى ،

أى عن طريق تقمص شخصية زوجته . بل لا يكتفى أن يتمنى وجود ما يناقسه في حب زوجته ، بل يسعى من حيث لا يدري إلى تهيئة الفرض لجذب المناقش وخلق الموقف الثلاثي . إن هذا التحليل قد يبدو للبعض تعسفياً خيالياً وبعيداً عن الواقع ، ولكن ما العمل والنفس الإنسانية أكثر عمقاً وظلمة من قاع البحار وأعقد مسلكاً من الغابات الاستوائية ، والأدلة على صحة هذا التفسير كثيرة تقدمها لنا العيادات السيكولوجية فقد وجد علماء التحليل النفسى ارتباط الغيرة بالجنسية المثلية في عدد كبير من الحالات التي عالجوها .

الواقع أن عوامل الانحراف والمرضى النفسى تتفاعل باستمرار مع عوامل الصحة والسواء . ويمكن أن نؤكد أن غير قليل من التصرفات التي تبدو سليمة ومعقولة ، خاصة في حالات الطلاق ، هي في الواقع تصرفات مرضية تختمى وراء ستار من التبرير الكاذب . ونعتقد أن المشرع الذي يريد تنظيم أمور الزواج والطلاق من واجبه أن يقيم حساباً للعوامل النفسية اللاشعورية التي تعين كثيراً من هذه التصرفات التي تبدو سليمة في حين أنها بعيدة عن الطريق السوى .

٦ - تصدع الحياة الزوجية :

رأينا في الفقرة السابقة أن الغيرة سبب هام من أسباب

شقاء الزوجين وأنها دليل على نوع من الحب سميناه بالحب التملكى ، هو مزيج من الشره الوجدانى ومن الخوف . شره وجدانى يلج فى الأخذ وفى الاستيلاء ويجهل العطاء والبذل والتبادل ، وخوف من فقدان الطرف الآخر لضعف الثقة فى النفس والشعور بالنقص . وكثيراً ما تنفجر الغيرة بعد فترة من التوترات العصبية الصامتة فهز بعواصفها بنيان الحياة الزوجية . ولكن هناك خطراً آخر يهدد سعادة الزوجين لا يقل أثره عن هذه المشاحنات العنيفة التى تثيرها الغيرة وإن كان هادئاً ساكناً وهذا الخطر هو تحويل الحياة الزوجية إلى سلسلة من الأفعال الآلية الرتيبة التى تتتابع فى جو من الاستسلام والرضى السلبي . فى مثل هذا الجو من الجفاف العاطفى يفقد الحب قيمته كعامل من عوامل تقوية النفس وتكامل الشخصية . ويكتفى كل زوج بالقيام بما يعتقد أنه الواجب . ولا شك فى أن القيام بالواجب فى جو من عدم الاهتمام والمبالاة لا يلبث أن يحول الواجب إلى أمر ممل .

ولكى يتفادى الزوجان الحديثان التعرض لهذا الخطر يجب عليهما أن يذكر أن الزواج ليس عقداً كبقية العقود التى تنظم معاملات الناس بعضهم مع بعض . ليس الزواج نهاية عهد يتصف بعدم الاستقرار ثم الدخول فى عهد من الثبات والاستقرار ، لا يتطلب مواصلة المجهود لكى يحتفظ

كل زوج بزوجه . كما أن الزواج لا يعنى الدخول فى منطقة مجهولة غير ظاهرة المسالك يستسلم فيها المرء للصدف ولإلهامات اللحظة الراهنة .

إن الزواج عملية بناء وتكوين وتقدم متصلة الحلقات ، تعترضها عقبات يجب أن تكون موضع تبصر وتفكير ، عملية تتطلب أحياناً بعض التوضيحات ولكنها تتطلب دائماً بذل الجهود لكى تسير إلى الأمام . فمن النادر أن يكون الحب فى بدء الحياة الزوجية حباً كاملاً ناضجاً : فإن الجانب الحسى فى الحب - وخاصة عند المرأة - فى حاجة إلى تربية دقيقة ، على الزوج أن يقوم بها بكل رفق ولطف لمدة طويلة من الزمن . فقد قررنا مراراً أن طريق الأنوثة أشد وعورةً من طريق الرجولة وأن المرأة تستكمل نموها الجنسى فى السنوات الأولى من حياتها الزوجية . إن اتحاد الزوجين جسماً وقلباً لا يمكن أن يتم دفعة واحدة ، فالتوافق العاطفى بينهما أمرٌ يجب تعلمه وككل تعلم فإنه يقتضى اجتياز مرحلة من المحاولات والأخطاء والقلسة على الاستفادة من التجارب السابقة . فإن حسن الروية مع الصبر والمثابرة كفىل بتذليل العقبات والصعاب التى تعترض الحياة الزوجية فى أطوارها الأولى .

ذكرنا أن عقد الزواج ليس عقداً تجارياً كبقية العقود ينص بجانب الالتزامات والواجبات على العقوبات التى سيطبقها

القانون في حالة عدم القيام بالواجبات أو عدم تنفيذ الالتزامات .
 إن المثل الأعلى في الزواج أن يشعر كل من الزوجين وفي كل لحظة من حياتهما أنه مُقبل على شريك حياته حراً راضياً لا مجبوراً مضطراً ، تحت ضغط تعهد لا يلبث أن يثير الندم .
 فإذا كان كل من الزوجين يشعر بأنه يهب نفسه للآخر في جو من الحرية والتقدير المتبادل فلا شك أن هذا الشعور بالحرية أقوى عامل من عوامل إسعاد الزوجين وتدعيم أواصر الحب والاتحاد .
 بهذه الكيفية فقط يمكن محاربة الملل الذي يستولى على كثير من الأسر والذي يحول الحياة المنزلية إلى سلسلة من حالات القلق والتدمير واضطراب المزاج .

وكذلك لا بد من هذا الجو من الحرية والتقدير المتبادل لكي تحتفظ الأمانة الزوجية بكل قيمتها . ففقد يظن بعضهم أن معيار الحياة الزوجية الناجحة هو أن يكون كل من الزوجين أميناً نحو الآخر لا يقدم على عمل من شأنه أن يمس سمعة الأسرة وشرفها . إن مثل هذا المعيار معيار سلبي إذا كانت الأمانة مفروضة فرضاً ومبعثها هو الخوف من الآخر والرغبة في تفادي المواقف المعضلة المخرجة فإن مثل هذه الأمانة التي يتحملها الزوج كحمل ثقيل لا قيمة لها لأن الأمانة الحقة هي قبل كل شيء أمانة القلب والفؤاد لا أمانة العبد المكبل بالقيود المادية . يجب أن تصدر الأمانة عن حب صادق يقوم

على الهبة لا على التملك والسيطرة ويجب أن يستند الإخلاص إلى الاعتقاد القوي والشعور العميق بأن الزوج في نظر الزوجة وبأن الزوجة في نظر الزوج هو الشخص المختار وأن القلب عرش مقدس لا يحتله إلا هذا الشخص المختار .

يتضح لنا مما سبق أن الحب في الزواج لا يمكن أن ينمو ويقوى ويزدهر إلا في جو من الثقة والحرية والتقدير . فإذا سلك أحد الزوجين سلوكاً يثير الشك والريبة أو إذا حاول أن يفرض قيوداً تعسفية لا مبرر لها أو إذا صدرت عنه أقوال أو أفعال تمس كرامة زوجه وتجرح إحساسه فإن بنیان الحياة الزوجية يأخذ يتصدع شيئاً فشيئاً ولا يلبث الفتور الذي أصاب الجاذبية المعنوية التي كانت تجمع بين الزوجين أن يصيب الجاذبية الجسمية فيزداد التوتر بينهما ويصبح التكيف العاطفي والجسمي أمراً عسيراً . ومما يضاعف سوء الموقف اعتقاد كل من الزوجين أنه ضحية الآخر فيحاول التعويض عما يعانیه من الاستياء والخيبة بالسعى وراء ما يرضى رغباته وميوله خارج نطاق الأسرة . وقد يركز الزوج كل اهتمامه في مهنته والزوجة في العناية الزائدة بأطفالها . وقد يكون التصرف حلاً للموقف غير أنه حل ناقص لأن فيه اعتداء على حقوق الزوجية . والدليل على ذلك أن الزوجة قد تغار من مهنة زوجها ويغار الزوج من أطفاله .

ومن الأسباب التي تعكر صفو الحياة الزوجية وتزيد التوتر بينهما عدم فهم كل من الزوجين طبيعة الآخر والفصل بين العنصرين اللذين يكونان الحب : العنصر الجسمي والعنصر العاطفي . فمن واجب الزوج أن يدرك أن المرأة تقدر إلى أقصى حد دلائل العطف والحنان وأنها في حاجة إلى أن تشعر أنها موضع إعجاب وتقدير ، وأنها ليست مجرد وسيلة لإشباع رغبات زوجها . ومن جهة أخرى يجب على الزوجة أن تدرك أن مطالب الطبيعة البشرية في الزواج ليست مقصورة على مجرد العطف والحنان بل تشمل رغبات جسمية في حاجة إلى الإشباع وبهذا الصدد ينبغي أن نعلم أن عدم الأمانة الزوجية لا يرجع إلى المغريات التي قد تصادف المرء في الخارج بل إلى تجاهل مطالب الزوجية الجسمية وعدم إرضائها . لا نريد أن نقول إن ما يجب اتباعه هو الاستسلام للغريزة والاهتمام بتزعاتها بل إنه من الضروري إخضاع الغريزة لنور العقل ولكن دون أن يؤدي سلطان العقل إلى إماتة الغريزة وخنقها بل إلى إرشادها وتهذيب قواها الحيوية .

٧ - الطلاق :

تمر الحياة الزوجية بمراحل مختلفة ، شأنها في ذلك شأن الكائنات الحية والمنظمات الاجتماعية . وتتطور خلال هذه

المراحل العلاقات بين الزوجين ويتخذ الحب الذى يربط بينهما صوراً جديدة من القوة أو الضعف ، من التوتر أو الهدوء .
وعوامل هذا التطور متعددة بعضها خارجى وبعضها داخلى
ومن العوامل الخارجية التغير الذى يلحق بالمستوى الاقتصادى
للأسرة إما صعوداً أو هبوطاً ، والحوادث الطارئة من أمراض
وحروب وكوارث طبيعية إلخ . . . أما العوامل الداخلية الملازمة
لطبيعة الأسرة فأهمها اتساع دائرة الأسرة بولادة الأولاد مما
يؤدى إلى ظهور وظائف جديدة وتكوين علاقات جديدة
أو إعادة تنظيم العلاقات الزوجية بحيث تضم عاطفة الأبوة
والأمومة .

ويكون تطور العلاقات الزوجية مصحوباً بتطور الحب
بين الزوجين ، ونعنى بالحب الحب الإنسانى الواقعى الذى
تتكامل فيه عناصر الحس والعاطفة والعقل ، لا الحب البهيمى
الأعمى ولا الحب الخيالى الأفلاطونى ، لا الأناية التى تتقنع
بقناع الحب بل هذه الحركة الشاملة التى تدفع الشخص إلى
أن يهب نفسه للآخر ويعمل على إبعاده ، هبة تتجدد فى
كل لحظة لأنها لا تقوم على نزوة متقلبة أو رغبة عابرة أو
غرض رخيص بل لأنها تقوم على وعد أبدي !

إن طريد الفردوس يحن دائماً إلى الجنة المفقودة وإذا كان
الإنسان كثيراً ما يخطئ اختيار الوسائل ويفضل الطريق

المؤدى إلى الخير والسعادة فإنه لا يمكنه أن يسكت هذا الصوت الذى يتصاعد من أعماق نفسه داعياً إياه إلى تحقيق جميع إمكانياته من حق وخير وجمال .

هذا هو الدعاء الذى يظل يسمع صوته ، إن عالياً أو خافتاً ، خلال هذه المراحل التى يجتازها الحب الكامل عندما ينمو فى جوّه الطبيعى وفى تربته الطبيعية أى فى جو الحياة الزوجية وتربتها . ويمكن تحديد هذه المراحل فى ثلاث : مرحلة التكوين الأول وهى مرحلة اكتشاف وحماس ثم مرحلة الأزمة والتوتر الممهدة لنضج الحب ، فترة توتر وعواصف لا بدّ منها لاستمرار عملية النمو وأخيراً مرحلة النضج وهى مرحلة هدوء واستقرار تكون الاختلافات التى كانت قائمة بين الزوجين قد تلاشت فيزداد التشابه بينهما فى العادات والأخلاق والآراء بل قد يصل إلى حدّ التشابه الجسمى . تلك هى صورة تخطيطية لمراحل الحياة الزوجية : تكوين ثم أزمة ثم نضج . غير أن كل مرحلة جديدة لاتنفى السابقة بل تتمثلها وتحفظ بأهم عناصرها لكى تواصل سيرها فالحركة الطبيعية للنمو والاكتمال ليست تشتت وتفريق بل حركة صعود لعناصر وعوامل أكثر غزارة وثراءً . ثم يجب أن نقول إن كل مرحلة من هذه المراحل الثلاث الكبرى تمرّ بعدة أطوار جزئية ثلاثية فى تركيبها أيضاً أى أطوار جزئية متعددة من النمو والأزمة والنضج .

وسبق أن تحدثنا عن بعض هذه الأزمات وبعض عوامل تصدع الحياة الزوجية كالغيرة والملل والحفاف العاطفي والمظاهر العدوانية غير أننا لم نتناول بعد هذه الأزمات التي تؤدي إلى انهيار الحياة الزوجية وقطع الصلة نهائياً بين الزوجين ونقصد الأزمات التي تنتهى بهجر منزل الزوجية والطلاق . وليس غرضنا أن نتناول جميع العوامل والأسباب التي تؤدي إلى الطلاق بل سنقتصر على ذكر أهم العوامل النفسية .

إن الطلاق كالزواج خاضع للتشريع وللإجراءات القانونية والسلطة التي تحكم بالطلاق أو ببطلان الزواج أو بفصل الزوجين تعتمد في حكمها على أدلة ووقائع خارجية ولا تعنى كثيراً بالدوافع العميقة التي تتفاعل في نفس الزوج أو الزوجة . نعم إنه من واجب القاضي ومن واجب من يعاونوه أن يحاولوا تقريب وجهات النظر وإرشاد الزوجين لتصفية الجو وإتمام الصلح بينهما . ولكن من النادر أن تؤدي هذه المساعي إلى نتيجة مرضية . إذ كثيراً ما تكون التهاثة مؤقتة ثم تعود الأزمة من جديد وتبعث في صورة أعنف مما كانت عليه . وذلك لأن الأسباب التي يستند إليها طالب الطلاق ليست هي الأسباب الحقيقية بل هي نوع من التبرير . فهو يعتمد أن الطرف الآخر هو السبب الوحيد لشتائه وبؤسه وأن الوسيلة الوحيدة لينال قسطه من السعادة، وإن كانت سعادة جزئية، هي أن تتاح له

الفرصة لبدأ حياة زوجية مع شخص آخر .
 قد يكون الأمر هكذا في بعض الأحيان ولكن
 المحللين النفسيين يعتقدون أن معظم حالات الطلاق ترجع إلى
 عوامل نفسية لاشعورية وتدخل في نطاق علم النفس المرضى ،
 أى أن الشخص الذى لا يرى حلا للأزمات التى تتخلل
 بالضرورة الحياة الزوجية إلا الانفصال والطلاق ليس بالشخص
 السوى وأن السبب الرئيسى الجوهري الذى يجعله يفكر في
 الطلاق ثم يهدد به ثم ينفذه هو مرض في نفسه ، هو عدم
 نضجه العاطفى ، هو هذه الأساليب السلوكية التى اكتسبها
 عند ما كان طفلا والتي كانت عاجزة عن تحقيق التكيف
 الناجح في ميادين نشاطه المختلفة مع والديه وإخوته وأصدقائه
 وزملائه في المدرسة وفي المهنة . فهو يستخدم في حياته الزوجية
 نفس الأساليب الخاطئة التى اعتاد استخدامها من قبل ،
 الأساليب التى توحى بها الأنانية الزائدة وعدم الثقة في النفس
 والخوف من المسئولية وحب التملك والسيطرة الزائفة . وقد تصل
 هذه الاتجاهات في السلوك إلى حد المرض النفسى الخفى
 الذى ينتهز ثبات الفرص التى تقدمها الحياة اليومية لكى ينشط
 ويتحرك وينفجر في جو من القلق والتوتر .

والمشاهد أن الشخص المنحرف مثل هذا الانحراف النفسى
 لا يجد ما ينشده من سعادة في محاولته الزوجية الثانية أو الثالثة

لأن أسباب الداء موجودة فيه وهو يحملها معه مهما تغيرت الظروف الخارجية وتنوعت شخصية الزوجة الثانية أو الثالثة إلا إذا كانت الزوجة الجديدة منحرفة نفسياً بنوع من الانحراف يتلاءم مع انحراف الزوج فيكونان وحدة شاذة لا يمكن أن تقوم إلى حين إلا في جو خاص من الشذوذ والتوتر .

إن الدراسات النفسية التي قام بها المحللون النفسيون في عياداتهم لحالات الطلاق أو الرغبة في الطلاق بينت بوضوح أن الطلاق لا يصلح أبداً ليكون علاجاً لمثل هذه الأزمات . بل العلاج الناجع هو أن يفهم الراغب في الطلاق الدوافع اللاشعورية التي تجعله يفكر في مثل هذا الحل فعليه أن يعالج نفسه من العقد التي تعمل في أعماق نفسه بل من المفيد - كلما هدد أحد الزوجين الآخر بالهجر والطلاق - أن يستشير كل من الزوجين المحلل النفسي وأن يطلبوا العلاج الملائم لحالتهم . فمن شأن العلاج النفسي أن يزيد المعالج استبصاراً ومعرفة بنفسه وأن يمكنه من تقدير الأمور تقديراً واقعياً . ومن شأن هذا الاستبصار وهذا التقدير السليم أن يجعل المرء يدرك أن الأزمات والمشاكل ملازمة للطبيعة البشرية وأنها ضرورية لرقى الإنسان وصعوده في سلم الكمال وأن بعض الأزمات العنيفة التي تهز بناء الحياة الزوجية لا حل لها سوى التضحية .

٨ - الأطفال :

في بدء كلامنا عن الزواج ومشكلاته أشرنا إلى أهم وظائف الأسرة وذكرنا أن الوظيفة الأولى هي إعطاء العلاقة الجنسية بين الزوجين قيمتها القصوى من الوجهة الحسية والروحية لأنه لا يمكن تحقيق السعادة بين الزوجين إلا إذا كان الرباط الذي يربط بينهما رباطاً جسماً وروحياً في آن واحد . ثم تأتي الوظيفة الثانية وهي الخاصة بتنشئة الأطفال وإعدادهم للحياة الاجتماعية .

وقد تناولنا الوظيفة الأولى بالبحث والدراسة مبينين طبيعة الحب المعقدة وكيف يتم التوفيق بين الغريزة الجنسية وبين الحب من حيث هو عاطفة سامية تقوم على الهبة والبذل وإنكار الذات ، ثم رأينا كيف تتطور العلاقة بين الزوجين مارة بمراحل التكوين والأزمة والنضج . وفي كلامنا عن أزمات الحياة الزوجية تعرضنا لمشكلة الطلاق وذكرنا بعض العوامل التي تدفع أحد الزوجين إلى هجر الحياة الزوجية وطلب الطلاق واتضح لنا أن في كثير من حالات الطلاق تلعب الانحرافات النفسية دوراً خفياً تحت قناع من التبريرات العقلية .

ونود الآن أن نتناول مشكلة الطلاق في ضوء وظيفة الأسرة في تنشئة الأطفال وإعدادهم للحياة الاجتماعية . وسنقتصر

على الموضوعين الآتين : أولاً هل عدم إنجاب الأطفال سبب كافى لتبرير الطلاق . ثانياً : ما هو مصير الأطفال من الوجهة النفسية فى بيت هدمه الطلاق .

للإجابة على السؤال الأول وهو هل عدم إنجاب الأطفال سبب كافى لتبرير الطلاق يجب أن نعرف أولاً ما إذا كان للزواج غرض أولى أساسى وغرض ثانوى فرعى . هل الغرض الأساسى هو الذى يتحقق فى بدء الحياة الزوجية وهو إشباع الرغبات الجنسية والعاطفية والروحية لكل من الزوج والزوجة فى حين يكون إنجاب الأطفال هو الغرض الثانوى المتفرع من الأول ؟ أو على العكس من ذلك نعتبر أن غرض الأسرة الأولى والأساسى هو التناسل وإنجاب الأطفال فى حين يكون إشباع الرغبات الجنسية والروحية مجرد تمهيد للتناسل ؟ لا شك فى أن علماء الاجتماع والتشريع سيقرون أن الغرض الأساسى للحياة الزوجية هو إنجاب الأطفال لضمان بقاء الجنس وأن من واجب الأفراد خدمة المجتمع والعمل على بقائه ونموه . ولسنا محتاجين إلى جمع الأدلة لتدعيم هذا الرأى فقوانين الطبيعة البشرية وتاريخ الإنسانية والنظم التشريعية والاجتماعية كل هذه الأمور تؤيد القاعدة التى تجعل إنجاب الأطفال الغرض الأساسى للحياة الزوجية .

وإذا كانت هذه القاعدة صحيحة فهل يتحتم أن يكون

عكسها خطأ وأن عدم إنجاب الأطفال يستلزم حتماً فصل الزوجين بعضهما عن بعض بالطلاق .

ليس هذا الموضوع مما يسمح بحله بنعم أو لا فلا بد من تمييز الحالات المختلفة التي تعترض الباحث والنظر في أسباب عدم الإنجاب والتناسل . فالقاعدة التي ذكرناها تحرم طبعاً تعمد منع النسل لأغراض أنانية وفراراً من المسؤوليات أما إذا كان عدم التناسل راجعاً إلى أسباب خارجة عن إرادة الشخص دون تعمد ولا قصد إرادى ففي هذه الحالة يجب التمييز بين أمرين : أولاً عدم توافر الشروط العضوية لإتمام الزواج وفي هذه الحالة يعتبر الزواج كأنه لم يكن ويحق للسلطة التشريعية إبطال عقد الزوج : ثانياً : توافر الشروط العضوية التي تسمح بإرضاء الغريزة الجنسية مع عدم توفر الشروط الفسيولوجية أى في حالة العقم الناتج عن نقص في وظائف الجهاز التناسلى . ففي هذه الحالة نجد اختلافات بيّنة بين علماء الاجتماع وعلماء النفس . فمن الواجهة الاجتماعية البحتة قد يبرر العقم طلب الطلاق غير أن علماء النفس ينظرون إلى أعمق من ذلك فيدافعون عن حقوق الفرد عندما يطغى سلطان المجتمع ولا يراعى حق الفرد في تنمية ذاته وتحقيق إمكانياته العاطفية والروحية ، ما دام استخدام هذا الحق لا يلحق بالمجتمع أى ضرر إيجابى .

ولتوضيح ذلك نقول إن الرجل الذى يطلق زوجته لأنها عقيم لا يسلك هذا السلوك إلا لأن حبه ناقص ولأنه ينظر إلى زوجته لا من حيث هى شخص يتمتع بالفكر والحرية وبالخصائص التى تميز الإنسان عن الحيوان بل من حيث هى آلة ووسيلة . فالمشكلة ترجع إذن إلى طبيعة الحب القائم بين الزوجين وأن طلب الطلاق لسبب عقم الزوجة لا يختلف فى جوهره فى نظر علم النفس عن طلب الطلاق لأسباب عدم الوفاق المزاجى والخلقى ، أى أننا بصدد أسباب نفسية معظمها لاشعورية ترجع إلى عدم النضج الانفعالى .

وما نريد أن نؤكدده هو أنه من الممكن تحقيق السعادة الزوجية فى حالة عدم إنجاب الأطفال لأن الغرض الأساسى الذى يرمى إليه الحب هو اكتمال شخصية الرجل والمرأة أحدهما بالآخر . ثم يجب أن نذكر أن العواطف مرنة إلى حد كبير وأن الميول قابلة للتحويل والإعلاء وأن الطاقة العاطفية التى كانت ستبدل فى رعاية الأطفال وتنشئتهم يمكن إشباعها فى ميادين أخرى من النشاط الاجتماعى أو الفنى أو العلمى دون تفكك الحياة الزوجية .

نعم إن أنوثة المرأة لا تكتمل إلا بالأمومة ولكن فى حالة تعذر هذه الأمومة العضوية هناك أنواع من الأمومة الروحية قد ترضى المرأة وتمنحها لونها من السعادة قد لا تقل عن سعادة

الأمومة العضوية خاصة أن معيار السعادة معيار « ذاتي » .
وما يقال عن الزوجة يقال أيضاً عن الزوج . فهو يشعر
بأن الطفل الذي أنجبه والذي يحمل اسمه هو إتمام لشخصيته
الاجتماعية وتزكية لرجولته ولكن في حالة تعذر الأبوة العضوية
توجد كذلك أنواع من الأبوة الروحية في إمكانه تحقيقها في
صحبة شريكة حياته دون أن يضطر إلى تحطيم قلب والحكم
على امرأة ، لا ذنب لها ، بأن تعيش على هامش المجتمع .
ومما يدعم رأينا هذا هو أن الرجل الذي يعجز عن أن يحب
زوجته من حيث هي غاية في ذاتها لا من حيث هي مجرد أداة
أو وسيلة لا يتردد في طلب الطلاق حتى ولو كان له أطفال .
نعم إن وجود الطفل قد يحمل الزوج أو الزوجة على التريث
قبل الإقدام على الطلاق غير أن وجود الطفل لا يحول دائماً
دون تفكك الأسرة وتحطيمها ، مما يقيم الدليل على أن إنجاب
الأطفال لم يكن الغرض الأساسي للحياة الزوجية . فإن كانت
الزهرة الجميلة أو الثمرة الطيبة دليلاً على جودة الشجرة وسلامتها
فليست الزهرة أو الثمرة هي جوهر الشجرة . فلا بد أن تكون
الشجرة في جوهرها سليمة لكي تزدهر وتنتج الثمار . وهل من
الحكمة أن نقتلع الأشجار التي لا تثمر وأن نعد شكلها الجميل
وظلها الوريث أمراً لا قيمة له . فالظل قد يكون رمزاً للأمان
وحاجة الإنسان إلى الأمان والطمأنينة لا تقل عن حاجته إلى

الطعام والشراب فقد تفوق السعادة المعنوية ما قد تقدمه لنا الحواس من لذة ومنتعة .

٩ - الأطفال هم الضحايا :

تقول الباحثة الاجتماعية الفرنسية لويزهرفيو Louise Hervieu في حديثها عن جرائم الأحداث : « لا يوجد أطفال مذنبون بل الأطفال هم دائماً ضحايا » . لا شك في أن الطفل في السنوات الأولى من حياته هو محصلة العوامل الوراثية والبيئية التي تؤثر فيه وتتفاعل باستمرار في ميدان لا يكاد توجد فيه في بادئ الأمر أى مقاومة صادرة من الطفل نفسه . فهو في حاجة لكي ينمو إلى تلقى الآثار المادية والمعنوية في الوسط العائلي .

وفي حالة اضطراب نشأته وإصابته بشتى الانحرافات في طبعه وسلوكه ، أى عندما يكون ضحية الظروف التي تحيط به ، هل يقع الذنب كله على الوالدين وعلى البيئة العائلية . ألا يمكن القول بأن الوالدين إلى حد كبير أو صغير هما بدورهما من ضحايا الظروف التي أحاطت بطفولتهما . قد يكون ذلك ، وإذا استرسلنا في هذا اللون من التفكير والتعليل لانتبهنا إلى القول بأن المذنب الأكبر هو المجتمع ونظمه المناقصة الظالمة . ولكن مثل هذا القول لا يجدى ولا يفيد ويجب أن نذكر دائماً

أن في إمكان الإنسان بفضل ما أوتي من عقل وإرادة أن يقاوم الآثار السيئة التي تحيط به وأن يصبح إلى حد كبير مسئولا عن نفسه وسيد مصيره .

وما دام مستقبل الإنسان من اتزان أو انحراف ، من توافق أو فشل ، من سعادة أو تعاسة يتوقف إلى مدى بعيد على سنوات الطفولة وطبيعة الجو الاجتماعي الذي اكتنف هذه السنوات فمن واجبنا أن نبحث جدياً في أثر الأسرة التي فككها الطلاق في تنشئة الطفل وتكوين اتجاهاته وتوجيه ميوله .

من الحقائق الثابتة عقلا وتجريباً أن البيئة الوحيدة الملائمة لنمو الطفل الجسمي والنفسي ولتنشئته الاجتماعية هي البيئة العائلية ، هذه المجموعة الموحدة المكونة من الأم والأب والابن . في هذه البيئة يجد الطفل المعونة المادية والمعنوية ، وأحسن الفرص لتقوية شخصيته ولتعلم أساليب التضامن والتعاون وضبط النفس . وإذا اختل توازن الأسرة فلا بد من أن يؤدي هذا الاختلال إلى اضطراب تنشئة الطفل بطريقة صالحة متكاملة . وقد يختل هذا التوازن إما بوفاة أحد الوالدين أو بهجره المنزل أو بتغيبه عنه فترات طويلة أو بتفكك الأسرة بالطلاق . ففي جميع هذه الحالات يحرم الطفل من سند قوى هو في حاجة إليه لنموه الوجداني والاجتماعي . غير أن أثر كل حالة قد يختلف عن الآخر والآثار التي يحدتها الطلاق أو انفصال الوالدين تفوق

في خطرهما آثار الوفاة أو الغياب ، لأن الأولى تحدث في جو من التوتر والبغض وتبدأ هذه الآثار تعمل عملها بطريقة خفية خبيثة قبل إتمام الطلاق كما أنها تستمر بعده . فحالة الطلاق وإن كانت تعتبر من الوجهة القانونية انتهاء ونخامة لمرحلة سابقة فهي من الوجهة النفسية والاجتماعية حالة معلقة غير منتهية ولا مغلقة على نفسها ومن شأن الحالات المعلقة أن تحدث القلق المستمر وأن تثير النزاعات القديمة وأن تبعث ألواناً جديدة من الصراع النفسى .

ولا يقتصر أثر العائلات المفككة على حالة الطفل من الوجهة النفسية فحسب بل يتعداه إلى سلوكه الاجتماعى . وتوضح لنا الدراسات الاجتماعية والقضائية مدى هذا الأثر في جرائم الأحداث . فقد وجد أن نسبة الأطفال المجرمين الذين يأتون من عائلات فككها الطلاق والانفصال أو وفاة أحد الوالدين تراوح بين ٥٠ و ٦٥ في المائة . ولا يتناول هذا التقدير الكمى إلا الأحداث الذين أحيلوا إلى محاكم الأحداث ودخلوا الإصلاحيات . ولا شك في أن هناك حالات أخرى ظلت محصورة داخل جدران المنزل ولم تتحول إلى أعمال عدوانية ضد المجتمع .

ويظهر من بعض الإحصاءات التى تناولت جرائم الأحداث وانحرافات سلوكهم أن نسبة الأسر التى يمكن اعتبارها من

الأسر السوية هي ١٢٪ فقط في حين أن نسبة الأسر المفككة بلغت ٨٨٪ . ومن أسباب تفكك الأسرة التي ذكرت في هذا البحث .

الطلاق – انفصال الزوجين – وفاة أحد الوالدين – زواج أحد الوالدين مرة ثانية – الحياة الزوجية غير الشرعية – المرض .

ومما هو جدير بالملاحظة أن نسبة حالات الطلاق والانفصال تعادل نسبة وفاة أحد الوالدين ، مما جعل بعض الباحثين يذهبون إلى أنه ليس الطلاق في حد ذاته هو السبب في تشويه نمو الطفل الانفعالي وانحراف سلوكه بل العامل الأساسي هو حرمان الطفل من أحد والديه سواء كان هذا الحرمان نتيجة الطلاق أو الوفاة .

لا شك في صحة هذا الرأي غير أنه ناقص ولا يذهب إلى ما وراء الأرقام للبحث عن أوجه الاختلاف بين آثار الطلاق وآثار الوفاة في نفسية الطفل وفي نوع علاقته مع من يعيش معه من الوالدين .

فكثيراً ما يحدث أن يصبح الطفل بين الوالدين المطلقين وسيلة من وسائل الضغط أو الإغراء ومجالاً للمنافسة بينهما ، محاولاً كل منهما أن يوحى إلى الطفل بواسطة الهدايا والوعود أنه موضع حبه ورعايته فإذا كان الطفل يعيش مع أمه فيحاول الأب

بجميع الوسائل اجتذاب حب الطفل وتنفيذه من أمه . فيظل الطفل يعاني من والديه ومن اتجاهاتهما الانفعالية المنحرفة . وقد يحدث أن يستغل الطفل الحالة الشاذة الناشئة من طلاق والديه فيحاول التلاعب بهما لإرضاء أنانيته ونزواته فيضيف إلى ما أصابه من انحراف واضطراب في نموه الوجداني اتجاهات سلوكية شاذة ستعوق في المستقبل توافقه الاجتماعي وتعرضه لألوان جديدة من الحرمان والإجباط عندما تواجهه مواقف معقدة تتطلب منه قسطاً غير يسير من المرونة والأمانة والتضحية .

غير أنه يجب علينا ألا نعمم بسرعة ، خاصة ونحن بصدد موقف تتفاعل فيه عدد كبير من العوامل قبل نهمل بعضها . فآثار الطلاق على الأطفال قد تختلف من حالة إلى أخرى كما قد تختلف آثاره على الزوجين .

كما يجب أن نقول إنه لا يكفي أن تكون الأسرة في ظاهرها متماسكة لكي نقول بأن تنشئة الأطفال ستكون حتماً صالحة وجيدة . فالمواقف السلبية في التربية لا تجدى بل هي ضارة . فهناك الجهود الإيجابية الذي يجب بذله باستمرار لإحكام تربية الطفل على أسس صالحة حتى ينشأ متزناً ناضجاً متوافقاً في مجتمعه .

فالأم التي تدلل طفلها وتعامله معاملة ضعيفة غير حازمة

قد تسيء إلى طفلها إساءة تفوق ما قد يلحقه من أثر الطلاق أو حرمانه من والده بسبب الغياب الطويل أو الوفاة . فواجب الأم أو الأب أن يتساءل دائماً ما هي أحسن الوسائل في هذه الظروف أو تلك الظروف لكي أضمن لطفلي تربية أخلاقية سليمة وبالتالي لكي أضمن له مستقبلاً سعيداً .

١٠ - الزواج المثالي :

عندما يتناول عالم النفس موضوع الزواج بالبحث والدراسة في ضوء الحالات التي تعرض عليه نجده يميل إلى إبراز العوامل التي تجعل من الزواج مهمة عسيرة شاقة ، مشيراً إلى نواحي الشذوذ والانحراف ، متحدثاً خاصة عن أسباب الشقاق والنفور وعدم التكيف بين الزوجين . ومن اليسير تعليل مثل هذا الاتجاه لاهتمام السيكولوجي بالنواحي العملية وبتقديم العلاج للمشكلات التي يستشار فيها . ثم إنه من المعلوم أن تحليل الظواهر السوية وكشف العوامل التي تعينها أصعب بكثير من تحليل الظواهر المرضية الشاذة وذلك لانسجام هذه العوامل بعضها مع بعض واختفائها وراء النتيجة النهائية في حين أن المرض يفكك الظاهرة ويكون بمثابة التجربة العلمية التي يقوم بها العالم لتغيير الظروف والشروط .

فقد قيل بحق إن الشعوب السعيدة لا تاريخ لها وكذلك

يبدو الزواج الهادئ السعيد أمراً يسير التفسير لأن تفسيره يتلخص في عبارة واحدة وهي أن كلا من الزوجين وفق في اختيار الآخر . غير أن هذا التفسير عديم الفائدة في الوجهة العملية فالأمر الذي يهمننا هو معرفة الشروط التي يجب توافرها لكي يوفق كل من الزوجين في اختيار الآخر .

أما في حالات الزواج الفاشل فإن الاضطراب الذي يصيب الحياة الزوجية من شأنه أن يبرز بعض العوامل بصورة واضحة فيسمح بدراستها وتحليلها وبالوقوف على نواحي التضخم أو النقص أو الانحراف . وقد سبق أن تحدثنا بالتفصيل عن المشكلات التي تعترض الزوجين في مستهل حياتهما الزوجية ثم عن الغيرة وبعض عوامل تصدع الأسرة . وعن الطلاق وأثره في مصير الأطفال من الوجهة النفسية والاجتماعية . وقد يبدو لنا في ضوء هذه الدراسة أن تحقيق السعادة والوثام في الزواج أمر شاق جداً مما قد يدفع البعض إلى التشاؤم واليأس . غير أنه يجب أن نذكر أن معرفة أسباب المرض والانحراف هي في الوقت نفسه معرفة أسباب الصحة والسواء ، ومعرفة حقائق الأشياء من أنجع الوسائل لمحاربة التشاؤم وبعث التفاؤل في النفوس . ونود اليوم أن نستخلص من دراسة الحالات الشاذة أهم الشروط لتحقيق السعادة في الزواج وسيتبين لنا أن الزواج الناجح السعيد ليس أسطورة من الأساطير بل أمر

في وسع الطبيعة البشرية أن تحققه بشرط أن نفهم جوهر هذه الطبيعة وما يلائمها من نظم اجتماعية، وبشرط أن نعمل بكل إخلاص لتهيئة الظروف المناسبة لتنمية جميع إمكانيات الإنسان ولصيانة النظم الاجتماعية الكفيلة بتنمية هذه الإمكانيات إلى أقصى حد .

لا شك في أن الزواج نظام يخضع لقيود اجتماعية معينة وأن الرابطة التي تربط بين الزوج والزوجة يجب أن تكتسب صفة شرعية . وقد اتخذ الزواج في تاريخ الإنسانية صوراً مختلفة تحت تأثير بعض العوامل الاقتصادية أو الدينية غير أن هناك صفة ثابتة تلازم الزواج في جميع المذنبات ، القديمة والحديثة ، وهذه صفة الدوام والاستقرار . فالرابطة الزوجية رابطة مستديمة لا يقطعها إلا الموت .

ثم يتضح لنا من دراسة التاريخ وتطور الوعي الإنساني أن الاتجاه السائد في تنظيم الحياة الزوجية هو الانتقال من نظام تعدد الزوجات إلى الزواج بواحدة . وليس من الغريب أن تكون المرأة نفسها هي التي تطالب بأن تكون شريكة الرجل الوحيدة ، عندما تدرك أنها ليست سلعة اقتصادية أو وسيلة من وسائل إرضاء شهوة الرجل بل غاية في ذاتها ، لها من حيث إنها إنسان ، نفس حقوق الرجل من احترام وكرامة .

والآن علينا أن نطرح السؤال الآتي : هل صفة دوام

رابطة الزواج حتى الموت ومطالبة المرأة بأن يكون الزواج
بواحدة من الأمور التي أحدثها تطوّر الإنسانية ونمو الوعي
النسائي أم هي متأصلة في الطبيعة البشرية وأن التطوّر الذي
نشاهده اليوم هو مجرد بزوغ لأصول موجودة في طبيعة
الإنسان .

لنرد على هذا السؤال يجب أن نستطلع رأى علماء النفس .
فمعظمهم يعتقدون أن صفة الدوام وميل المرأة إلى أن تكون هي
الزوجة الوحيدة جزء من الطبيعة البشرية . فقد دلت الدراسات التي
تناولت المبادئ التي يخضع لها نمو الحياة الإنسانية على أن هذا النمو ،
عندما يكون سوياً ، يرمى دائماً إلى تحقيق هدف نهائي مستقر .
فالدوام والثبات والاستقرار من دلائل النضج الوجداني والعقلي ،
أما الشخص المنحرف ، غير الناضج فإنه يكون دائماً في حالة
تردد وشك . متقلب المزاج ، غير مستقر في سلوكه ، غير
ثابت في عمله ، قد يعتقد أنه أرقى من غيره لأنه يتمتع بحريته
كيفما شاء ، والواقع أنه أسير نزواته ؛ واندافعه إلى العمل
لا يدوم طويلاً لأنه لا يحسن اختيار الهدف بل يعجز عن
إدراك الأهداف الإنسانية العليا . فقانون النمو السوي إذن
هو الاتجاه نحو تحقيق هدف معين .

وهذا القانون ينطبق أيضاً على الحياة الجنسية . فالإنسان
يميل إلى تحقيق صورة ثابتة مستقرة من العلاقة الجنسية وهذه

الصورة تتحقق في الزواج الدائم المستقر .

وبجانب هذا الميل إلى الثبات والاستقرار يوجد ميل آخر يميز العقل الإنساني هو رد المتعدد إلى الواحد والبسيط وإرجاع الأنواع المختلفة إلى نوع واحد ومحاولة الكشف عن مبدأ واحد للتفسير والتعليل . وليست هذه النزعة إلى التوحيد مقصورة على التفكير الفلسفي والعلمي بل هي تسيطر أيضاً على حياتنا العملية . ثم يجب أن نذكر أن لبّ الزواج ليس الحب وحده بل أمر يفوق الحب في عمقه وشموله . إن عالم الحب مخلق في حين أن عالم الزواج متجه نحو الخارج نحو عالم النشاط والإنتاج . ومن الخطأ أن يعتقد بعض الرجال أن الزوجة تحدّ من حرية الزوج . إن مهمة الزوجة أن تتوسط بين زوجها وبين العالم الخارجي ، أن تزيد من قدرته وكفاءته . فرضاها وتقديرها لنشاط زوجها في مهنته من أهم أسباب نجاحه في كفاحه اليومي .

فالرجل الذي يحجم عن الزواج خوفاً من فقدان حرّيته لا يفهم معنى الحرية الحقّة . فالحرية في نظره هي عدم المسؤولية . أما الحرية الحقّة التي يتمتع بها الرجل المتزوج المتحدّ بزوجته بكل إخلاص ووفاء هي شعوره بالطمأنينة وبأنه يعيش في سلام مع نفسه ومع العالم .

وهنا تتضح لنا عظمة الرسالة الملقاة على المرأة ، رسالة

التهوض بالإنسانية والمحافظة على كرامتها والعمل على إسعاد الأجيال القادمة . فعليها كأم أن تنمي في أولادها روح الواجب ، روح إنجاز العمل ومواصلته حتى تحقيق الهدف ، أن تنمي فيه الشعور بأن الحياة تصبح عديمة المعنى إن لم تجذبها أهداف عالية . بهذه الكيفية بنضج الطفل تدريجاً حتى يدرك قيمة الثبات وإنجاز العمل وقيمة الإخلاص الدائم للمبادئ التي تعلمها .

وعلى المرأة كزوجة أن تزيد زوجها ثقةً في نفسه وأن توفر له أسباب النشاط المثمر المنتج وأن تجعله يشعر أنه في وسعها أن تملأ حياته وأن تحقق كل ما كان يتمنى من سعادة وهناء في حياته الزوجية .

١١ - الوفاء في الزواج المثالي :

إن التحليل العلمي بطبيعة الرجل والمرأة من الوجهتين الجسمية والنفسية يؤدي بنا إلى نتيجة هامة وهي أن الزواج ليس أمراً عرضياً ، يوجد في ظروف اجتماعية معينة ، ويتغير ويتلاشى إذا تغيرت هذه الظروف ، بل هو أمر ملازم لطبيعة الإنسان وعنصر جوهري ضروري لكي تكتمل الحياة البشرية . والزواج في لبه وأساسه هو قبول كل من الرجل والمرأة أن يعيشا معاً حتى الموت في ظل الشرع والأخلاق ، أي أن معنى

الزواج يستلزم حتماً معنى البقاء والدوام والاستقرار . غير أن المهم هو ليس تحقيق الدوام والاستقرار بطريقة خارجية مادية على الرغم من الشقاق الداخلى وتوتر الحياة الزوجية بل المهم هو أن يقوم الاستقرار والدوام على أساس من الوثام والتفاهم وعلى نية صادقة قوية للمحافظة على هذا الوثام ولتقوية هذه الرابطة الجسمية والمعنوية فى آن واحد التى تجعل من الزوج والزوجة وحدة متماسكة متضامنة الأطراف . ويمكن تلخيص جميع الشروط التى تضمن بقاء هذه الوحدة وتنميتها فى كلمة واحدة : الوفاء .

وكما أن هناك صوراً مختلفة لحالات الزواج التى تبدو لنا مستقرة إذا نظرنا إليها من الخارج يوجد أيضاً صور مختلفة للوفاء . فبجانب الوفاء الخالص الحرّ الذى لا تشوبه شائبة توجد أشكال من الوفاء المزيف أو من الوفاء السلبى الذى فقد روح الإخلاص أو من الوفاء المصطنع الكاذب الذى لم يعد سوى قناع لإخفاء ما وراءه من انحلال وموت .

ولكى نفهم تماماً طبيعة الوفاء الخالص الذى يقوم عليه الزواج المثالى يجدر بنا أن نقف قليلاً عند طبيعة الزواج من الوجهة السيكولوجية وأن نكشف عن سمته الجوهرية بعد أن نستعرض أهم عناصره كما تبدو لنا خلال خبرتنا النفسية .

لا شك فى أن الزواج المثالى يستلزم وجود عنصرين

أساسيين هما الجاذبية الجنسية أولاً ثم الحب . غير أن الزواج المثالي لا يمكن أن يقوم على الجاذبية الجنسية وحدها لأنها معرضة للتغير والزوال كسائر الأمور الحسية ولا بدّ من أن تدعمها عاطفة الحب . وحتى الحب وحده لا يكفي لإقامة الزواج المثالي لأنه هو أيضاً عرضة للتقلب والزوال بل للانقلاب إلى ضده خاصة عندما يأخذ صورة الولوع والغرام . فالحب الذي لا يندمج في الحياة الزوجية ولا يستمد منها أسباب النمو والبقاء هو بمثابة مغامرة يستسلم لها الإنسان دون وعي أحياناً ودون أن يدري أبداً كيفية تطورها ووقت انتهائها ، ففي الحب من حيث هو مجرد اندفاع عاطفي جانبي غريزي لا إرادي ولهذا السبب قد يصاب بتطورات فجائية تؤدي به إلى الفتور والزوال أو تحوله إلى مأساة مؤلمة . أما الحب في ظل الحياة الزوجية فإنه يكتسب روحاً جديدة لأن الزواج مهمة جدية تقوم على جانب كبير من التفكير الموجه ومن العزم الإرادي . ولذلك قد لا نلوم أنفسنا إذا خاننا الحب ولكن فشلنا في الزواج يترك فينا دائماً الشعور بأننا أخطأنا وأسأنا التصرف .

ويتضح لنا الفرق بين عالم الحب وعالم الزواج بالمقارنة بين العلاقة السيكولوجية التي تربط بين العاشقين وتلك التي تربط بين الزوجين . ففي الحالة الأولى يعيش العاشقان

في عالم مغلق منعزل أنانيّ النزعة ، وينظران إلى الآخرين نظرة شك وريبة قد تتطور إلى نوع من الاهتمام كأن يخشى كل منهما أن يفقد الآخر وفي مثل هذا الجو من التملك المطلق تنبت بذور الغيرة بسهولة ويصبح الوفاء أمراً مهدداً باستمرار .

أما في حالة الحب الزوجي ، فلا يكون الزوج مستغرقاً في حب الآخر كما هو الحال لدى العاشقين بل يكون عالم الزواج قابلاً للنمو والتوسع مرحباً بكل جديد وكلما اتسع نطاق الأسرة زادت أواصر الحب بين الزوجين قوة وشدة لأن الحب في كنف الزواج يكون قد تطهر من النزعة إلى الامتلاك والاستئثار ليصبح قدرة لا نهاية لها للبذل والعطاء والتضحية .

فالشعور الذي يربط الزوج هو الشعور بأن كلا منهما للآخر لا بأن الواحد هو ملك الآخر ؛ الشعور بأن الإثنين مكملان لبعضهما بعضاً . وتنمو شخصية كل منهما في جو من الحرية داخل هذه الوحدة التي نسميها بحق الوحدة الزوجية . والحياة الزوجية تطبع شخصية الزوجين بطابع خاص لا يمكن محاؤه ، فيشعر كل منهما أنه أصبح جزءاً من كل ، إنه انضم إلى الجزء الذي يكمله ، إنه يُكون معه المجتمع الأصغر هذه الخلية التي تدخل في بناء المجتمع البشري الأكبر . وبتكوين هذا المجتمع الأصغر المستقر يرضى الإنسان نزعة عميقة في طبعه ، النزعة إلى الحياة الاجتماعية ، إلى الفرار من

العزلة والوحشة ، كما أنه يحقق صورة جديدة ، وإن كانت مختلفة في عناصرها ، للرابطة التي كانت تربط الطفل بالديه . إننا نعلم أن في سن المراهقة يثور المراهق على القيود المفروضة عليه ويضيق ذرعاً بسلطة والديه فينشد التحرر من القيود ويطلب الاستقلال ولكن بعد سنوات يصبح عبء الحرية ثقيلاً ويبدأ يشعر بالوحشة المعنوية رغم نشاطه وأعماله وعندئذ يدرك أنه ليس من الخير أن يظل الإنسان منفرداً فيسعى إلى اختيار شريك حياته ، إلى اختيار هذا الشخص دون غيره لكي يقضى حياته في معيته . ولهذا السبب يكون الزواج من الوجهة السيكولوجية وفي ضوء معرفتنا لطبيعة الإنسان مطبوعاً بطابع الدوام وعدم الانفصام . فهو ليس مغامرة غرامية تسجل في محكمة أو تدمغ بدمغة رسمية ، بل المرحلة الطبيعية التي يجب اجتيازها لإتمام الطبيعة البشرية وإرضاء نزعتها الاجتماعية العميقة .

ولكن على الرغم من أن الحب ليس هو أساس الزواج وجوهره ، غير أنه يؤدي دوره الضروري في جميع مراحل الحياة الزوجية . فبفضل الحب يكشف الإنسان من هو جدير بأن يشاركه في حياته ، لأن عاطفة الحب وسيلة من وسائل المعرفة قد تفوق في دقتها ونفوذها وسائل المعرفة العقلية البحتة . ولكن إذا كان يجب أن نحب الشخص الذي اعتبرناه

جديراً بأن يكون شريك حياتنا فليس معنى هذا أن كل من يحرك فينا عاطفة الحب يصلح لكي يكون زوجاً لأنه كما سبق أن قلنا ، الزواج مهمة يقتضى تنفيذها الحكم السليم والعزم الإرادى وروح المسئولية .

وبفضل الحب تتلون الحياة الزوجية بألوان زاهية فيشع في الجو العائلى روح الأمل والتفاؤل وتصبح الأعباء اليومية أيسر وأخف وطأة . وعلى رغم من تطوره مع السنوات يظل الحب الزوجى مبعث الاطمئنان والهناء .

غير أن جوهر الزواج ليس الجاذبية الجنسية ولا الحب نفسه بل كما قلنا تحقيق هذه الرغبة العميقة فى الإنسان إلى أن يكون مع الشطر الثانى الذى يكمله . ولهذا السبب تظل الرابطة قوية بين الزوجين بعد أن تكون الحواس قد هدأت فسعادتهما هى أن يكون الواحد مع الآخر ، أن يجلس معه ، أن يعيش معه ، أن يشاركه جميع ظروف الحياة فى السراء والضراء . وليس المهم أن يعمل أحد الزوجين شيئاً ما لكى يثبت للآخر أنه يحبه كأن هناك شكاً يجب تبديده ، بل المهم أن يدرك بل أن يحس دون تفكير أنه مع زوجه . قلب الزواج الحقيقى هو هذا الشعور بالمعية وبأن هذه المعية أمر طبيعى لهذه الوحدة الزوجية التى اندمج فيها الطرفان اندماجاً كلياً . وفى مثل تصورنا هذا للزواج الحقيقى يصبح الوفاء أمراً طبيعياً ونتيجة

حتمية لهذه المعية الزوجية لعدم وجود ما من شأنه إصابة الرابطة الزوجية بأى ضعف أو تفكك .

١٢ - ألوان من الوفاء :

ليس من العيب أن نتحدث عن الزواج المثالي بحجة أن الأمور المثالية أمور خيالية بعيدة المنال فإن الإنسان يتزع دائماً بطبيعة عقله وفؤاده إلى ما هو أحسن وأرقى ، هو يتزع دائماً إلى تحقيق أهداف ؛ وقد لا يحسن أحياناً اختيار الهدف فراه يبحث عن هدف آخر يجد في تحقيقه إشباعاً لرغباته العميقة ولما ينشده من استقرار وثبات.

وعندما تحدثنا عن الزواج المثالي وصلته بالوفاء انتهينا إلى النتيجة الآتية وهي أن الزواج المثالي لا يعانى أبداً مشكلة الوفاء من حيث هو عمل خلقي يتطلب بذل المجهود لمواجهة الظروف المعادية والتغلب عليها وذلك لأن تعلق كل من الزوجين بالآخر وإخلاصهما القوي من شأنهما أن يحصنا الزوج والزوجة ضد أى إغراء جنسى يأتى من الخارج . وهذا لا يمنع الزوجين من أن يختلطا بالآخرين وأن يعاشرا الناس وأن يقدرنا صفاتهم غير أن نظرة الزوج إلى أى امرأة أخرى أو نظرة الزوجة إلى أى رجل آخر تكون نظرة مجردة نزيهة غير مغرضة . تلك هى الحال فى الزواج المثالى الذى يكون فيه الزوجان

متحدين اتحاداً كلياً . أما إذا انحرف الزواج وأخذ يتصدع لسبب من الأسباب فعندئذ يصبح العالم الخارجى وما فيه من رجال ونساء مصدر إغراء وفتنة . وفى هذه الحالة يتخذ الوفاء شكلاً جديداً فيصبح واجباً خلقياً بل عبء خلقياً قد يكون من العسير تحمله . وعندما يتخذ الوفاء فى شعور الزوج أو الزوجة شكل الواجب فهذا دليل على أن هناك خطراً يهدد الزواج من الداخل وأن تصدعاً قد حدث فى بناء الزوجية سيتسلسل منه العدو الخارجى للقضاء على هذا البناء .

والنتيجة التربوية التى نستخلصها من هذا التحليل هى أنه لا يكفى تلقين المبادئ الخلقية من الخارج على صورة تدريب يعتمد على الضغط أو التخويف ؛ بل ليس من الكافى أن يقتنع العقل بسمو المبادئ الخلقية دون أن تصبح هذه المبادئ جزءاً لا يتجزأ من الشخصية والدافع الأساسى العميق الذى يعين السلوك ويوجهه . فليس من المنطق أن نتهاون مع الطفل أو مع المراهق إذا لجأ فى بعض تصرفاته إلى أساليب الغش والكذب والخداع ، سواء فى ألعابه أو فى تأديته واجباته المدرسية ثم نطالبه فيما بعد أن يكون وفياً مخلصاً فى عمله أو فى حياته الزوجية . فإن الاتجاه نحو الوفاء أو نحو الغدر والحيانة من الاتجاهات العامة التى تصبغ الشخصية بصبغتها الشاملة . فإذا كان أسلوب الشخص فى حياته هو الوفاء بالوعد

والإخلاص في العمل فمن المحتمل جداً أن يكون وفياً مخلصاً في جميع أمور حياته وأن يبدي هذا الاتساق الذي يميز الشخصية المثابرة المتكاملة .

والحياة الزوجية عمل جدى متصل الحلقات لا يمكن الشروع فيه ومواصلة السعى بنجاح ما لم تكن الشخصية متسقة في تصرفاتها متكاملة في دوافعها وأهدافها متصفة بالوفاء والإخلاص .

فالاستعداد للزواج لا يبدأ قبل توقيع عقد الزواج بسنة أو بسنتين . قد تكفى هذه المدة للاستعداد المادى أو الاقتصادى ولكنها لا تكفى للاستعداد المعنوى . فكثيراً ما قلنا إن الزواج ليس نهاية عهد وبداية عهد جديد بل هو الامتداد الطبيعى لنمو المرء العقلى والخلقى . هو إحدى الغايات التى تحدد مراحل الحياة التى لا تتحقق إلا بتحقيق الغايات السابقة الممهدة لها وعلى ذلك فالاستعداد للزواج من حيث شروطه المعنوية والحلقية يبدأ منذ الطفولة المبكرة ويستند إلى التربية التى يتلقاها الطفل من والديه ، متأثراً بمختلف العوامل التى تؤثر فى تنشئته الاجتماعية التى تكون فيه الاتجاهات والأساليب التى سوف يستخدمها فيما بعد فى معاملاته مع الآخرين . فإذا شبّ الطفل وفياً مخلصاً فمن المرجح أن يظل هكذا فى المستقبل عندما يشرع فى بناء أسرته الجديدة .

وعندما يصبح الوفاء من مقومات الشخصية وطبيعة ثابتة في الإنسان فلا يعود يشعر الزوج أو الزوجة أن الوفاء واجب أو عبء بل أمر طبيعي تستلزمه طبيعة الزواج ، أى أنه والزواج شيء واحد ، جوهر واحد .

ولا يصبح أمر الوفاء مشكلة من المشاكل إلا عندما ينحرف الزواج عن صورته المثالية ، وعندما تتحول الرابطة الزوجية من رابطة معنوية روحية إلى رابطة شكلية تقوم على المنفعة أو حتى على احترام التقاليد . ففي هذه الحالات قد تبدو الحياة الزوجية حياة هادئة سعيدة موفقة ولكن إذا دققنا النظر لوجدناها حياة فارغة فاترة أقرب إلى الموت منها إلى الحياة ، فالوفاء في مثل هذه الحالة أشبه ما يكون بالهدنة التي تقوم بين فريقين من المحاربين فيتعهد كل فريق بأن يحترم شروطها . غير أن هذه الهدنة لا يمكن أن تتحول إلى سلم حقيقى بل هى أقرب أن تنقلب إلى شجار وحرب .

حياة هادئة في الظاهر ولكن لا عن انسجام في النشاط بل عن فراغ وعدم اهتمام ، هو الهدوء الذى ينجم على المقابر وفي مثل هذه الحياة الزوجية التي انعدم فيها الابتكار والتجديد يدور الزوجين كالأشباح حول مقبرة الحب . والوفاء بينهما وفاء سلبي لا عاطفة فيه ولا حيوية .

وكذلك لا وجود للوفاء في الحالات التي يكون فيها

الزواج عبارة عن صفقة تجارية قائمة على تبادل المنفعة وخاضعة لشروط معينة : قيود من ناحية حرية مطلقة من ناحية أخرى . فمثل هذا الاتفاق ليس جديراً بأن يسمى زواجاً والإخلاص المقيد بشروط ليس إخلاصاً بل ضرباً من الحساب النفعي .

وبين هذين الطرفين - طرف الجمود من جهة وطرف الإباحية من جهة أخرى - يوجد الزواج غير المستقر حيث تنبعث مشكلة الوفاء باستمرار في جوٍّ من الحذر ومن الغيرة الكامنة . فكل من الزوجين عاجز من جهة عن التمسك الصارم بالتقاليد وبالأوامر الخلقية ومن جهة أخرى عن تحمل عبء الحرية الكاملة والاستهتار . فهو يعيش في جوٍّ من القلق لا يدري ما إذا كان يجب الرجوع إلى تقاليد الماضي أو الاتجاه نحو نداء المستقبل الغامض .

وأمثال هذه الحالة كثيرة جداً وهي ليست إلا صدى للأزمة الروحية والخلقية التي يعانيها المجتمع في الوقت الحاضر فقد زاد عدد الرسل الذين يوجهون نداءهم إلى الإنسان الحديث واعدن إياه بأن يضمنوا له السعادة والأطمئنان إذا استمع إليهم ، فهذا يتحدث باسم العلم وذاك ينادى باسم الدين وثالث يستوحى الفلسفة ورابع يشيد بمبادئ سياسية واجتماعية جديدة وهناك من يتكلم باسم الفن داعياً إلى الحرية المطلقة إن لم يكن إلى الفوضى والإباحية .

والإنسان اليوم حائر بين هذه النداءات المختلفة المتضاربة وليس من الغريب أن تضطرب القيم المعنوية وأن يصل هذا الاضطراب إلى داخل الأسرة فيؤثر أثره في الحياة الزوجية جاعلاً مهمة تحقيق الوفاق بين أعضاء الأسرة أمراً شاقاً عسيراً .

والواقع أن المذاهب المتطرفة أو التي تنحصر في ناحية دون الأخرى من نواحي الطبيعة البشرية تعجز لتطرفها أو لقصر نظرها عن أن تقدم لنا حلاً وافياً لمشكلات العصر . فلا بدّ من أن ننظر إلى الإنسان نظرتنا إلى وحدة حية معقدة يجب أن تراعى فيها نواحيها المادية والعقلية والروحية في آن واحد . أن نراعى فيما يختص بالموضوع الذي نعالجه ما يقتضيه الجنس والحب والزواج في آن واحد .